مكتبتنا العربية

من ذخائر السنة

الخير باق في الناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ العام بالأزهر

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أكل طيباً ، وعمل في سنة وأمن الناس بوائقه ، دخل الجنة ، قالوا : يا رسول الله ، إن هذا في أمتك اليوم كثير : قال : وسيكون في قوم بعدي » . رواه الحاكم .

ولا يضيره أن تأخر تدوينه : فإن النقل بطريق الرواية أصح وأفضل عند علماء الإخباريات ، من النقل بطريق الكتابة ، لضعفها وإشكالها ، بخلوها من الأعجام والشكل ، وغلبة الأمية على أهل البداوة بوجه أخص ؛ بل إن علماء اللغة كانوا إذا ارتابوا بفصاحة أعرابي ، ممن يطرءون على الحضر ، وظنوا أن جلده قد لان ، وذهب جفاؤه الذي يعدونه مادة الفصاحة ، وضعوا له قياساً غير صحيح ، فإن نطق به طرحوه ، وإذا وجدوا من أولئك الأعراب من يفهم اللحن وعلل الإعراب ، بهرجوه وزيفوا طبعه ، وطرحوا لغته ، كما يفعلون بمن لم يخلص منطقه . ذكروا أن أبا عمرو بن العلاء ، استضعف يوماً فصاحة أبي خيرة العدوي الأعرابي ، فسأله : كيف تقول : حفرت الإران ؟ فقال حفرت إراناً . فقال له أبو عمرو : ألان جلدك - يا أبا خيرة - حين تحضرت ؟ ! [١]

وأخيراً ، رحم الله أبا حفص الفاروق المحدث . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ورضي الله عنه ، إذ يقول ما معناه :

عليكم بأشعار العرب ، ففيها تفسير كتابكم ، لأنه إنما نزل بلسانهم .

---

[١] أخطأ أبو خيرة ، لأن الحفرة التي يخبز فيها ، يقال لها : إرة وتجمع على إرين « كعزة وعزين » . وأما الأران فخشب النعش . وانظر الجزء الأول من الخصائص ، لأبي الفتح بن جني .

مكتبتنا العربية

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا بشيراً بالخير ، ويا دليلا على الهدى ، ويا داعياً إلى اعتناق الفضائل والمكرمات .

صغت سعادة الدنيا والآخرة فى كلمات ، وجمعت جمال النفس ، وجلال البر ، وخالص العمل . وحسن الأحدوثة ، فى حديثك العذب المذاق ، فوجهت أمتك إلى شمائل الفضل ، محكمات ، منسقات ، تزدان متماسكة متجاذبة ، وتزدان متناثرة متألقة . فهى كعقود الكواكب المزدهرة فى زرقة السماء الصافية ، فى تجمعها جمال ، وفى تألقها جلال ، وفى نثارها بريق يزهو به المشرق ، ويعتز به المغرب ، ويتجاوب لمعانه ودورانه بين الجنوب والشمال .

تلكم هى الحكمة فى أسلوبها ، وهى العظمة من ينبوعها ، وذلكم هو المجد فى توجيه الرسول الحكيم .

من أكل طيباً حلالا ، من عمل يده ، أو مما ورثه ، فى غير حد يتجاوزه ، أو غش يخدع به ، أو غبن يدفع إليه ، فهو الأبى المترفع ، وهو الرحيم المتعفف يأبى أن يطعم مما لا يحل له ، ويترفع عن أن يسف إلى دنية يتبلغ بها ، ويشفق أن ينتزع اللقمة من فم المجهود حتى لا يبيت طاويا . ويعف عن كل شبهة تشوب الرزق الحلال حتى يصفو من كل كدورة تغشاه . فهو يقنع بالقليل ، متمثلا بقول الشاعر :

إن القناعة والعفا ف ليغنيان من الغنى
فإذا صبرت عن المنى فاصبر فقد نلت المنى

فأما الآثم الظالم ، وأما الشره الطامع ، وأما المتكالب المغرور ، فذلك إلى قسوة عنته ، له سعير من بغض من حوله ، وعليه وزر يبوء به من سوقه ، وبين يديه غضبة من الله تزلزل من ذات نفسه ، وتدك من حالق جبروته ، وتطوى ما جمع من مال ، فتضيعه عليه فى حسرة ، وفى نكال .

أيها الغاشون : الله ورسوله يبرآن منكم ، والظالمون : يد الله فوق أيديكم ، ويا أيها الوالغون فى دماء الفقراء تمتصونها وتعتصرونها . أيها الرابحون فى السوق السوداء ، المتجرون فيما احتكرتم ، لتملأوا خزائنكم ، وتذهبوا بالكثير

مكتبتنا العربية

والقليل ، رويداً . فما أنتم بأشد قوة ، ولا أكثر جمعاً ، ممن نكس الله عتوهم ، وخسف بهم ، فاعتبروا ، وازدجروا ، وإلا حلت عليكم كلمة العذاب . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة لحم ودم نبتاً على سحت ، النار أولى به » رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه ، وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . فقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب . ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له » ؟؟

* * *

أما من عمل فى سنة ، فهو ذلك المهتدى بهدى رسول الله ، الآخذ عنه سمته وتقواه .

من شأنه : مراقبة فى العبادة ، وإحسان فى المعاملة ، وزهد عما فى أيدى الناس وثقة بالله ، واصطبار على الأحداث والنازلات ، وقناعة تسلم النفس إلى الطمأنينة والأمان ، وترفع عن الدنايا ، وبعد عن الريب ، وحلم لا يضيع حقاً ولا يغرى بمفسدة ، وحزم يضع الأمور فى موازينها ، ليقضى لها أو عليها ، وعزيمة لا تفتر ولا تهن حتى تبلغ هدفها ؛ كل ذلك فى حسن القدوة ، وجمال الأسوة ، « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » ، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

* * *

وأما من أمن الناس بوائقه « شره » فهو الأمين فى الغيب والشهادة ، الكريم صحبة ، والسليم طوية ، والكاف عن الأذى لسانه ويده ، وغمزته ولمزته ، الذى لا يقع فى عرض ، ولا يتمرغ فى كذب ، ولا يستمرىء الطعن والكيد فى خفاء ، وفى نذالة ، وفى تبذل ... شأن اللص الجبان الرعديد ، لا يكاد يواجه النور ، ولا يسرق إلا من وراء ستار .

مكتبتنا العربية

من أمن الناس بوائقه فاز بحبهم ، وزكا بحمدهم ، وظفر بتأييدهم ، وحب الناس آية حب الله ، وحب الله غاية كل مؤمن .

من أمن الناس بوائقه أمن هو فى سربه ، وأفسح لنفسه فى مكان العزة عندالله - الذى يعز المؤمنين - وبين الأعزة الأكرمين .

فمن تحلى بالخير ، وتجمل بالمكرمات ، وصبر ، وصابر ، كان من نفسه فى سمو وقوة ، وفى جمال وجلال .

قال الشاعر :

هى النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ... ولكن عارا أن يزول التجمل

وبعـــد :

فهذه أوصاف ثلاثة ، من تحلى بها دخل الجنة ، مصداقا لهذا الحديث النبوى الكريم الذى لا ينطق عن الهوى .

طيب الطعمة ، وعمل بالسنة ، وكف عن الأذى .

ولقد كانت بشارة هذا الحديث على صاحبه أفضل الصلاة وأتم السلام ، أن مد الخير فى الناس ، فلم يقصر الاتصاف بتلك الشمائل على من كان فى عهده وبين صحابته - رضوان الله عليهم - حين قالوا : يا رسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير ، قال : « وسيكون فى قوم بعدى » .

سيكون الخير فى الناس ، ويكون البر ، وتكون القناعة ، ويكون الاعتصام بالكتاب والسنة ، فتكون الطعمة حلالا ، والكسب حلالا ، والقناعة موفورة ، والذمة مكفولة ، والناس فى أمن وأمان .

ولبيك يا رسول الله ، ثم لبيك ؟

مكتبتنا العربية

المسلمون والتصوير

لحضرة الاستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس فى الآداب — دبلوم فى الآثار

وامين مكتبة جامعة فؤاد الأول

مقدمة :

إن موضوع التصوير فى المراجع العربية . وأقصد بالذات كتب الفقه الإسلامى من الموضوعات غير الوافية . والمستعرض لتلك المراجع يتنقل من كتاب الى آخر دون أن يجد فرقا محسوسا أو تباينا ملموسا بين كتاب وكتاب . فالمتقدم أخذ عنه المتأخر وهذا الأخير لم يزد على ما نقل شيئا حتمته ظروف الحال ، ولا تغير الزمان والمكان . والمسألة تنحصر فى بعض تفسيرات بسيطة سطحية ، أو تأويلات نقلها الخلف عن السلف ، لذلك لا يجد الباحث فى موضوع التصوير شيئا له قيمته فى تلك الكتب القديمة . كما لا يجد رأيا يمكن اعتباره فيصلا فى المشكلة .

على أنى لا أنشد استكمال هذا البحث فى تلك الكتب من الناحية الفنية وإنما أقصد الوصول الى رأى الفقهاء فى مسألة التصوير من ناحية تحليله أو تحريمه . وأقول رأى الفقهاء لأنى أعتقد أن الإسلام ترك هذا الموضوع لعـــدم أهميته ، وكل ما هنالك بعض أحاديث تناولها فقهاء المسلمين بالشرح والتعليق فحرموا أو كرهوا أو أجازوا عمل التصاوير أو اقتناءها أو النظر إليها .

لذلك أعتقد أنى أقرب الى الصواب إذا قلت : رأى الفقهاء فى التصوير ، أكثر من قولى : رأى الإسلام فى التصوير ، لأنى لا أجد فى القرآن ولا فى الحديث نصاً صريحاً يحرم التصوير ولا تفسيرا صحيحا يشرح الفرق بين التصوير والتمثيل (عمل التماثيل) ولا علة مقبولة لتحريم ما اتفق المسلمون على تسميته بالصور أو التصاوير .

القرآن والتصوير :

يهم الباحث فى موضوع التصوير أن يعرف ما ورد فى القرآن الكريم من

آيات تحرمه أو تحلله ، وسأعرض لتلك الآيات لأصل فى النهاية الى مشكلة التحريم أو الإباحة وهل وردت فى القرآن أم لم ترد .

لعل أغلب القائلين بتحريم التصوير من المستشرقين يجمعون على أن القرآن قد نص على ذلك فى سورة المائدة عند قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . وقد فسر هؤلاء كلمة « الأنصاب » بالتصاوير ووصفوها بأنها رجس . وقال النسفى : « إن الأنصاب هى الأصنام ، وكونها رجس لأنها تنصب فتعبد » . وإذن يمكن أن نقول إن وصفها بأنها رجس وأمر المؤمنين باجتنابها راجع الى كونها تعبد من دون الله . فإذا لم تعبد فإنها كما أعتقد لا تكون رجسا ويجوز للمسلمين أن يزاولوها . وقال النسفى أيضا فى تفسير قوله تعالى : « وما ذبح على النصب » . أن كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون إليها » . ولعل فى ذلك ما يشير الى أن هذه الأنصاب كانت أحجارا ولم تكن صورا ولا تماثيل . ويؤيد ذلك قول الزمخشرى فى أساس البلاغة مادة « نصب » : (ونصب حول الحوض نصائب وهى حجارة تجعل عضائد له . وكانوا يعبدون الأنصاب وهى حجارة تصب عليها دماء الذبائح فتعبد) .

وجاء فى تفسير القرطبى لتلك الآية ما يأتى : (وقيل « على » بمعنى اللام ، أى لأجلها . قال قطرب قال ابن زيد : ما ذبح على النصب وما أهل به لغير الله شىء واحد) . من هذا يمكن أن نقول إن الآية لا تتعرض للنصب بتحريم أو تحليل وإنما تعنى بالذات ما ذبح على تلك النصب وتحرمه لأنه قد أهل به لغير الله سبحانه وتعالى .

وقال القرطبى فى تفسير قوله تعالى : إنما الخمر والميسر .. الآية .. إن المقصود بالأنصاب : الأصنام . وقيل هى النرد والشطرنج . على أن القرطبى مع شهرته بالعناية بتفسير آيات الأحكام ، لم يتعرض لموضوع الأنصاب فى هذه الآية وإنما أخذ بالرأى الذى يفسرها بأنها النرد والشطرنج ، وأوضح ذلك فى تفسير قوله تعالى : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » [سوره يونس] .

وتتصل سورة سبأ بهذا الموضوع من ناحية أن التماثيل كانت فى شريعة سليمان عليه السلام ، مباحة لا حرمة فيها . قال تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » .

مكتبتنا العربية

قال النيسابورى فى شرح كلمة « تماثيل » : والتماثيل صور الملائكة والنبيين ، كان يأمر بأن تعمل فى المساجد من نحاس وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم . وقال الألوسى : « وقيل كانت التماثيل صور شجر أو حيوانات محذوفة الرءوس مما جوز فى شرعنا ، ولا يحتاج إلى التزام هذا لأن حرمة تصوير الحيوان كاملا لم تكن فى ذلك الشرع . ثم قال : وحكى مكى فى الهداية أن قوماً أجازوا التصوير واحتجوا بهذه الآية » .

هذه خلاصة آراء المفسرين للآيات التى تمس عن قرب أو عن بعد موضوع التصوير ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن القرآن قد نص صراحة أو ضمناً على تحريم التصوير . ولا يمكننا أن نقبل فى تساهل تأويلات المفسرين ، لأن التأويل « وجهة نظر » ووجهة النظر تختلف باختلاف الأفراد والأحوال . ولو أن لمشكلة التصوير ما لغيرها من الأهمية كمشكلة الخمر ومشاكل الزواج أو الطلاق أو الميراث ، لنص عليها القرآن صراحة كما نص على غيرها من مشاكل المعاملات والعبادات .

الحديث والتصوير :

أما فى كتب الحديث فإننا نجد بعض الأحاديث التى قد يشتم منها للنظرة الأولى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم التصوير ونهى عنه . على أن فى هذه الأحاديث تعارضا وفى بعضها ما يفيد ان النبى قد أقر التصوير ولم ينكره .

والذى يمكن أن يخرج به من يمعن النظر فى هذه الأحاديث - على فرض صحتها - ان النبى كان يخشى أن يرجع الناس إلى الوثنية الأولى لو صرح أمامهم بإباحة الصور والتماثيل . بيد أنه حين وثق من ثبات العقيدة فى نفوسهم لم يأبه لتلك الصور بل أقرها . غير أن الشراح قد أخذوا بفكرة التحريم وبالغوا فيها وتناقلوها بعضهم عن بعض . وسأعرض فى اختصار هذه الأحاديث وتعليق الشراح عليها وما يمكن أن يرد به على هؤلاء الشراح .

الحديث الأول : . . . عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه . وفى رواية إلا قضبه .

قال الشوكانى فى شرح كلمة « تصاليب » أى صورة صليب من نقش ثوب أو غيره ، ثم قال : « والحديث يدل على عدم جواز اتخاذ الثياب والستور والبسط

وغيرها التى فيها تصاوير ، وعلى جواز تغيير المنكر باليد من غير إذن مالكه ، زوجة كانت أو غيرها » . وهذا التفسير الذى ذهب إليه الشوكانى بعيد عن روح الحديث ونصه ، فالتصاليب ليس المقصود منها التصاوير وإنما ما كان على شكل صليب لأن ذلك قد يؤكد ، عند ضعاف العقول ، الرأى القائل بصلب عيسى عليه السلام ، فنقض التصليب لا لكونه صورة وإنما للفكرة التى يحملها الصليب .

ثم ذهب الشوكانى إلى جواز تغيير هذا المنكر عملا بالحديث مع أن الحديث لا ينص على هذا ولا يشير اليه . وعلى فرض أن الحديث فيه لفت نظر إلى ازالة المنكر فإنه لا يدل على ما قاله الشوكانى من جواز تغيير المنكر باليد ولو بغير إذن مالكه : زوجة كانت أو غيرها .

والذى أراه أن الشوكانى قد تشدد فى شرح الحديث وأغرب فى فهمه فحمله أكثر مما يحتمل .

الحديث الثانى : . . . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الملائكة لا يدخلون بيتا فيه صورة أو كلب .

قال النووى فى شرح هذا الحديث (وهو شافعى المذهب) « قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور فى الأحاديث . وسواء صنعه لما يمتهن أو لغيره فصنعته حرام بكل حال لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى ، وسواء ما كان فى ثوب أو بساط أو درهم أو دينار وفلس وإناء وحائط وغيرها . أما تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام . هذا حكم نفس التصوير . وأما اتخاذ ما فيه صورة حيوان ، فإن كان معلقا على حائط أو ثوب أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتهنا فهو حرام ، وإن كان فى بساط يداس ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام . ولا فرق فى ذلك كله بين ما له ظل وما لا ظل له . هذا تلخيص مذهبنا فى المسألة ، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهو مذهب الثورى ومالك وأبى حنيفة وغيرهم . وقال بعض السلف : إنما ينهى عما كان له ظل ، ولا بأس

مكتبتنا العربية

بالصور التى ليس لهـا ظل . وهـذا مذهب باطل ، فإن السّر الذى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم وليس لصورته ظل » .

ويظهر فى جلاء ان النووى تشدد إلى أبعد حد وانه ذهب مذهب الشوكانى فى الإغراب فى شرح تلك الأحاديث وفهمها . ويمكن فى اختصار أن نرد على مقالة النووى بمـا يأتى :

لقد حرم النووى تصوير صورة الحيوان على الاطلاق لأن فى ذلك مضاهاة لخلق الله تعالى ، واباح تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وهو يعلم أن هـذا أيضا من خلق الله ، بل ان الله سبحانه وتعالى حينما تحدى الضالين من عباده ، طلب اليهم أن يخلقوا حبة أو ذرة أو شعيرة . فلو أن علة التحريم هى مضاهاة خلق الله تعالى لوجب على النووى أن يقول بتحريم كل ما كان من خلق الله تعالى حتى الشجر وجبال الأرض لأن ذلك صورة مما خلق الله . ولأن العينى يقول فى شرح « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى (قالها النبى حكاية عن الله سبحانه وتعالى) ، ان التشبيه فى كلمة « كخلقى » لا عموم له ، يعنى كخلقى فى فعل الصورة لا من كل الوجوه » .

وإذن فالنووى بين أحد أمرين : اما أنه لم يصل تماما إلى معرفة علة تحريم التصوير (لو أن ذلك التحريم كان موجوداً) حين قال إنها مضاهاة خلق الله تعالى ، وإما أنه تساهل وتهاون حين أباح تصوير الشجر وغيره من النبات وجبال الأرض . . . . . والظاهر ان علة التحريم هى ما لم يذهب اليه النووى أصلا إذ ليس فى مضاهاة الخالق سبحانه وتعالى والتشبه به فى محاولة الاتقان والرغبة فى الكمال ما يوجب الكفر أو الحرمان ...

وظاهر أيضاً أن النووى لم يفرط ولم يتهاون حين رأى اباحة تصوير صورة الشجر وغيره لأن ذلك مما لا يعقل تحريمه وإنما التحريم منصب على ما يعبد من دون الله . [يتبع]

(مجلة الأزهر) فى هذا المقال دراسة أصولية للبحث عن حل أو حرمة التصوير فى الإسلام . ولكنها مع قوتها تحتمل التمحيص ، فنرجو ممن عنى من علمائنا المبرزين بمسألة التصوير ، أن يوافينا برأيه فى هذه المسألة .

مكتبتنا العربية

النفاق الاجتماعي

لفضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم علي أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

النفاق فى اللغة الموت ، والمنافق هو الرجل يظهر خلاف ما يبطن . وقد اشتهر على ألسنة المحققين من العلماء أن نفاق المنافق ملاحظ فى اشتقاقه « نافقاء اليربوع » وهو جحر تحفره فى داخل جحرها المعتاد تختفى فيه حين يراد طلبها ، أو السطو عليها ، وله باب سرى تغشيه طبقة رقيقة من التراب أو الحجارة تضربه برأسها لتخرج منه . والجحر العادى يسمى « القاصعاء » وعلى ذلك يتولون فى تحديد معنى المنافق ، يظهر غير الذى يبطن . . ونراهم تركزوا فى ملاحظتهم ـ الأخذ أو الاشتقاق ـ المعنى الأول « الموت » مع أنه أولى بالملاحظة ، وأجدر بالرعاية ، لأن المنافق ميت وإن كان حيا ، وحقير وإن حاول نباهة الشأن ، وسمو المنزلة ، ولا ينكر ذلك جاحد ، ولا يكذبه مكابر ، وقديما قالوا « مهما تبطن تظهره الأيام » والتاريخ يحدثنا أن المنافقين لم تنطل على الناس حيلهم ، ولم تروج مفترياتهم ، بل كشف الله سترهم ، وأعمى بصائرهم . وأحبط مكرهم ، وفضح الاعيبهم . وفى القرآن الكريم تعرض لشؤونهم ، وتفصيل لأخبارهم ، وسرد لما كان يبدر منهم من خزى ظاهر ، ونقص مزر ، وتخبط واضح ، وفشل ذريع « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . والتلون شيء آخر يخالف النفاق لأن صاحبه أشبه بالممثل أو « البهلوان » الذى يحذق لعب الأدوار ، وعرض الروايات ، فلا يعدم

مكتبتنا العربية

أن يلاقى كل إنسان بوجه ، وأن يحدثه بنغم ، وأن يضرب له على الوتر الذى يرضيه صوته ، ويشجيه إيقاعه ، وهو ضرب من الملق ، ونوع من الرياء ، قلما يكون فى غير المنافقين . وواضح جد الوضوح جعل الله سبحانه المنافقين « فى الدرك الأسفل من النار » وتشديد العقوبة عليهم الى هذا الحد ، لأنهم غامضون فى سيرهم ملتوون فى سلوكهم ، لا تعلن وجوههم عن دخائلهم ، ولا تكشف ظواهرهم عن سرائرهم ، بخلاف الكافر فإنه واضح القصد ، بين الغاية ، معروف الاتجاه ، يقول بلسان حاله ، ما يقوله بلسان مقاله . . .

وإذا كان الدين الإسلامى ينعى على الفرد أن يكون منافقا . ويرى أن وجوده أشبه بوجود الجراثيم التى تضر بالجسم السليم ، وتفتك بالعضو الصالح . وتودى بما يعتز به من صحة ، أو يباهى به من قوة ، فإنه ينعى على الجماعة أكثر وأكثر ، ويرى أن الوزر الذى تحتمله متضامنة متضامنة أشد وأنكى مما يحمله الواحد الدائر ، والإنسان المتكرر ، وكان من السنن الكونية القديمة . إحلال السخط ، ونزول الصواعق . وقلب المدن ، ومسخ الأجيال . وإشاعة الجدب ، واحتباس المطر ، « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ثم قطع عنا ذلك كله تكريماً لنبينا صلى الله عليه وسلم ، واكتفى بتشديد النكير ، والتوعد بالعذاب يوم القيامة ، إذ يقول « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » وذلك لأن الجماعة متى تسرب اليها هذا الوهن ، ودب فيها هذا التخاذل أصبحت غير مرجوة الصلاح ، أو مأمولة النفع ، أو ميئوسة النهوض ، وكيف يكون فيها شىء من ذلك والمرض قد استفحل فى أوصالها ، وتمشى فى مفاصلها . . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يبتلى الأفراد بالشر والخير فتنة ، فإن أشد ما يبتلى به الرجل فى خلقه أن يكون منافقا ، له ظاهر طلى ، وباطن غير رضى ، يعيش بينهما مذبذبا ، ويقضى عمره فيهما مضطربا ، لا يثق أحد به ، ولا يأمن جانبه ، ولا يطمئن إلى معاشرته ، ولا يستريح لقربه منه ، ولكنه يطارده مطاردة الحشرات ، ويقاومه مقاومة الحيات . . . ولو صح ما يقول علماء الأخلاق من أن كل انحدار

مكتبتنا العربية

ينحدره الإنسان مظهر لمرض يكمن فيه ، وعلة تعتريه ، وضعف يسيطر على نفسه ، وخلل يتحكم فى حسه ، هيهات أن ينفع فيه علاج ، أو يجدى معه طب ، فإن هذا المرض من الأمراض الخبيثة الملعونة ، لأنها لاتقف بصاحبها إلى حد أن تجلب له مصلحة ، وتدفع عنه مفسدة ، بل يسترسل بها « الميكروب » إلى درجة أوسع ، ومدى أبعد ، وتظل تعمل عملها ، وتؤدى رسالتها فى محيط لا نهاية له من الضرر والهلاك .

وقد يكون من الممكن أن يتلافى المجتمع ذلك الإيذاء الذى يناله من فرد شاذ أو أفراد شاذين ، كما نطالع فى المجلات والصحف عن بعض الشعوب المتمدينة ، والأمم الراقية من عزلهم المصابين وحرمانهم من الزواج والنسل ، وبهذا تتخلص من كيدهم وتنجو من خطرهم . . أما الجماعات نفسها فلا يمكن حين يعتريها هذا الفساد التخلص منها ، والقضاء عليها ، اللهم إلا إذا تداركتها عناية الله بالمعجزات ، وخوارق العادات ، وما أظن أن يكون شيء من ذلك . . لهذا فإن ما تعانيه البشرية الآن من جهل ومرض ، وفقر وخلاف لا ينتهى ، ونزاع لا ينقطع ، واضطراب شامل ، وقلق دائب ، وعدوان متكرر ، ليس إلا بعض سيئات النفاق الاجتماعى . ومع أن هذا النوع من النفاق ميؤوس من علاجه ، فى نظر علماء التربية ، فإن الدين يرى أن الولد باعتباره أمانة فى يد أبيه مطلوب منه أن يحفظها ويرعاها ، ويتعهدها بالتهذيب والأدب ، كما يتعهد الفلاح حقله بالرى والتسميد ، إذا صان خلقه من الانحدار ، ورعى طباعه من الفساد ، وأحاط سلوكه من الالتواء ، خلق منه رجلا كاملا ، وإنساناً فاضلا ، وبهذا يصبح فى البيئات المختلفة جماعات مثالية مرموقة ، يعتمد عليها الوطن ، ويحملها المسئولية ، ويلقى إليها بالزمام . . وفى الحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ولكن الوصولية حين طغت على الناس ، والعيش حين ألحّت مطالبه على الأفراد ، جعلتهم يتذبذبون بين الواجب والمصلحة ، والهوى والضمير ، والعقل والطيش ، ورضى الخالق وسخط المخلوق ، وداعى الإيمان ، وهواتف الشيطان ، فاللهم حقر الدنيا فى أعيننا ، وبغضها إلى نفوسنا ، ولا تجعلنا عبيدها ، ولا تفتنا بها ، وارزقنا فيها القناعة والزهد ، واجعلها تطلبنا دون أن نطلبها وترغبنا دون أن نرغبها . . فإننا شهدنا لها ضحايا منكرة مرذولة ، واستعذنا بك وحدك ، إنك أنت المولى وأنت النصير .

مكتبتنا العربية

على هامش المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود جميلة

المدرس بكلية اللغة العربية

نزل أمين الوحى ، وبلّغ الصادقَ الأمين ما بيته القوم له ، وأمره أن لا ينام فى مضجعه ، وأن ينتقل مركز قيادته إلى طيبة التى قرر لها أن تكون رده الدعوة وسند الحق وقصبة الدولة الجديدة ، ومبعث الهدى والعرفان ، ومصدر النصر والعزة ومدينة النور والإسلام .

بعد أن فرطت مكة فى مكانتها وتهاونت فى مجدها وشرفها وضحت بسيادتها ، وباعت مستقبلها الباسم المنير بماضيها الخلب الخادع ، وأسرفت وأفرطت وحضنت الضلال ووكزت الحق واستحبت العمى على الهدى ، حتى نفر منها المخلصون وفر عنها المصلحون وقصد إلى غيرها أحباب الله وأعداء الشيطان ، ولم يُقم منهم بها سوى من ضيق عليه الخناق طلباً لفتنته ، وطمعاً فى صرفه عن عقيدته ، أو من بقى مع محمد صلى الله عليه وسلم رجاء الصحبة أو انتظاراً لأمر الله ، وبقى أبو بكر رضى الله عنه مع الباقين وكم ألح فى الهجرة وألح عليه الرسول فى البقاء ، على أن يحظى بالمرافقة ويفوز بالمصاحبة ، فلما جاء الإذن وقيل للرسول : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » قال لجبريل : من يهاجر معى ؟ قال : أبو بكر الصديق . فذهب إليه متقنعاً فى منتصف النهار فى ساعة لم يعتد الذهاب فيها ، وأخبره أنه قد أذن له فى الخروج ، فسأله أبو بكر الصحبة ، فأجابه بأنها قد وجبت . فقال أبو بكر : بأبى أنت وأمى خذ إحدى راحلتى هاتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على أن تأخذ ثمنها . وهكذا نلمح جدية المعاملة ، وصدق الصحبة ، وإخلاص القلوب ، فلا تضليل ولا طمع ولا خدعة ولا رياء ، ولا ظلم ولا تورط .

وحقق الله أمنية أبى بكر وأمنية الرسول له ، ثم رجع الرسول إلى منزله

مكتبتنا العربية

واصطحب معه من هو أولى بنصره ، وأحق بالدفاع عنه ، اصطحب علياً بن أبي طالب الرضى الوفى ، أخاه وابن عمه ودخل الحجرة الشريفة .

وما كانت حجرته عليه الصلاة والسلام حصناً يرد طالباً ، ولا قلعة محكمة البنيان ثابتة الأركان ، ولكنها حجرة متواضعة لا تعز على مقتحمها ولا تعجز متسلقيها .

* * *

لقد انبعث أشقياء قريش فى عتمة من الليل إلى بيت الرسول ليقتلوه ، وكان فيهم أبو جهل ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وطعمة بن عدى ، وأبو لهب ، إلى غير هؤلاء ممن رأى بعض الرواة أنهم كانوا مائة عدا . ياعجبا كل العجب ! كثرة من فتيان قريش تكون كتيبة حربية تقف على أبواب الرسول وتحيط بمنزله مدججة بالسلاح ، مؤيدة من قريش ؟ ماذا وقع فى خلدها ، وبماذا صورت محمدا فى هذا الوقت ، وبماذا تصورت حجرته ؟ أظنها قد تصورته ليثا مصورا أوعدوا غفيرا ، وتصورت حجرته مدينة محصنة ، لذا واجهته بهذه الجموع بعد تشاور وتحالف ، وهكذا كان رسول الله مرهوب الجانب عظيم القدر معجزة فى كل شىء .

* * *

وتطلع أشقى العصابة من ثقب الباب ليرصده ويكشف أمره ، وأمر الرسول عليا أن يرقد فى فراشه ، ويتشح بردائه الحضرمى ، وهم بالخروج على القوم الذين انطفأت أبصارهم كما انطفأت بصائرهم حينما طلعت عليهم شمس الوجود ، ونور الحق وخرج محمد وهو يحثو التراب على رؤوسهم يقرأ قرآنه : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وبقى القوم يترقبون النبي مطمئنين بأنهم سيفصلون فى قضيتهم فصلا يؤمنهم على ماضيهم ويبقى على آلهتهم وضلالهم .

وكم كانت دهشتهم عند ما نفض على من فراشه وعلموا أنهم أقاموا الليلة حراساً لعلى لا مترقبين بمحمد ، وفسدت المؤامرة وسقط التدبير ، وعلموا أن الزمام

مكتبتنا العربية

قد أفلت من أيديهم ، وأنه لا أمل لهم بعد إلا إذا أدركوه فحبسوه أو قتلوه . وإذاً ؟!! لا بد من عيون تنشر ، وقصاص يتعقبون الأثر ، وجُعل يبذل بسخاء لمن يرشد إليه ويدل عليه ، وحمى الله رسوله ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم قريشاً وحده . وأذل المشركين وأخزاهم بخروجه من بينهم وهم لا يشعرون .

* * *

وهنا أقف وقفة قصيرة أمام رجلين آخى الله بينهما فى الأرض كما آخى بين ملائكته فى السماء : محمد وعلى علما بمؤامرة قريش وما بيتوه من شر بأعلام الله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ثم هذا على يصحب محمداً ويلزمه إلى بيته وهو يعلم أن الغدر محقق وأن محمدا مرمى السهام ، وهدف السيوف ، ثم يأبى على لا أن يقدم نفسه فداء لأخيه ، وهذا وفاء تقتضيه الأخوة ، ويفعله المخلصون ، ولكن محمداً صلوات الله عليه يأمره أن يرقد فى مكانه وهو الهدف للرامين ، ثم يتلطف ويخرج ليبدأ رحلته إلى دار نصرته وعزته ، فيا ترى ماذا دار بخلد الرسول فى ذلك الوقت بالنسبة لأخيه ؟ لقد قال لعلى قبل : لا يخلص إليك شىء تكرهه منهم ، والحق أن محمداً كان مؤمناً بنصر حقه ، وأن سهام المبطلين لا تصل إلى صميمه ولما تحمله قدماه ، وعلى رضى الله عنه جُنة الحق . ومخيف الباطل ، ومذل الشرك ، ومواقفه فى الله لا زالت تنتظره والله لا يخزى النبي ولا يخذله . فقد وعده نصره وتأييده ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أنه المقصود المتبوع دون على ، وأن القوم يريدون قتله على مشهد من بنى هاشم ، لتعلم أن قبائل قريش جميعها قد اشتركت فى دمه ، إذن لن يتتلوه غيلة ، لأن ذلك مفوت لقصدهم مبعد عن غرضهم ، فلا بد من انتظار يقظته ، وعند ذلك يتبينوه ، ومتى تبينوه عرفوه ، ومتى عرفوه تركوه .

* * *

وما أشبه طاعة على والسيوف مصلتة ، بطاعة اسماعيل والمدية معدة ، ففى كلٍّ وفاء وابتلاء ، وفى على تضحية وفداء ؛ ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم

مكتبتنا العربية

إلى بيت أبي بكر ، فخرجا من داره بعـــد أن جهزا أخف الجهاز ، قالت عائشة رضى الله عنها : « وجهزناهما أحث الجهاز ووضعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبي قطعة من نطاقها فأوكت به الجراب وقطعت الأخرى قصيرتها عصاما لفم القربة » . ولقبت لذلك بذات النطاقين ، وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي هاديا للطريق ومرشدا فى السفر ، وهو على دين قومه وأمناه على ذلك وسلما إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث .

واتجه الرسول إلى غار ثور ومعه أبو بكر ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له الرسول فسأله ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، فقال : يا أبا بكر ، لو شيء أحببت أن يكون بك دونى ، قال نعم . والذى بعثك بالحق ، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر لرسول الله مكانك حتى استبرىء لك ، ويستبرىء ويرجع فيذكر أنه لم يستبرىء الحجرة فيسرع لاستبرائها ، ثم يدعو رسول الله للدخول فدخلا ، وجدت قريش فى طلبه ومعها القافة ووقفوا على الغار حتى قال أبو بكر لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا ، فقال الرسول « ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن الله معنا » .

ويجتمع القوم ويتفرقون ويتناقشون ويتجادلون ، ومحمد وصاحبه يسمعان حديثهم ، ويدركان نعمة الله عليهما فى أن عمّ أمرهما على المشركين وصرف عن صفيه وصفى صفيه كيد الخائنين ، وكان عامر بن فهيرة يرعى عليهما غنما لأبى بكر ويستمع ما يدور بمكة بشأنهما ، ثم يأتيهما بالخبر ، فإذا كان السحر سرح مع الناس ، ومكثا فى الغار ثلاث ليال حتى خمدت نار الطلب ، وجاءهما ابن أريقط على ميعاده فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة ، وسار الدليل أمامهما . وعين الله تكلأهما وتأييده يصحبهما وأسعاده يرحلهما ويسعدهما ؟

(يتبع)

مكتبتنا العربية

دعائم الدعوة إلى الحق

للفضيل الاستاذ الشيخ حامد عونى

المدرس فى كلية اللغة العربية

لا يزال الناس بخير ما ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر : ذلك أن الأمر بالمعروف والنداء بالحق هما قطب الرحى للسعادة البشرية ، بل هما النخاع الشوكى لحياة الأمم ، ورائد الفلاح لكل شعب ، وإن المنكر داء وبيل فى البشر ، وسد منيع دون السعادة ، ما باض طائره فى أمة إلا أفرخ شرا ، ولا امتدت جذوره فى أرض إلا تفرعت بلاء وضرا .

وقديما علمنا أن الهداة الى الخير فى كل أمة هم قلبها النابض ، وروحها الخافق ما أقيم عليهما حارس من العظة والاعتبار ، حتى إذا ما أخذتهم سنة ، أو قعد بهم العجز عن أداء ما حملوا من أمانة لم تلبث الأمة أن تصاب بسكتة القلب ، وتفقد عنصر الحياة ، وبذلك نستطيع أن ندرك ما لأولئك الهداة من خطورة الموقف ، وفداحة العبء ، وما لهديهم - إن صدق - من عظيم الأثر فى حياة الأمم والأفراد .

وأخلق بالهداية أن تنفذ الى حبات القلوب نفاذ السهم فى الرمية ، وأن تقع من النفوس موقع الرحيق الحلال من ذى الغلة الصادى ، لو أنها وليدة أبى عذرها ، وناسج بردها ، فما كل فرس جواد ، ولا كل عارض ماطر .

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل ؟

وخليق بمن يؤمل لغراس هديه أطيب الثمر ، أن يكون هاديا بزيه وهندامه قبل أن يكون هاديا بجواهر لفظه وسحر بيانه ، ولست أريد أن يكون رث الهيئة زرى الطلعة يرتدى الأسمال البالية ، فتصدف عنه القلوب جموحا من حيث يريد اقتيادها ، بل أن يتخذ طريقا قصدا ، فلا هو خليع البزة يعثر فى فضل رياشه ، ولا هو بذ الهيئة يتعثر فى أسماله . . . « كلا طرفى قصد الأمور ذميم » .

مكتبتنا العربية

ولا يعزب عن أذهاننا أن الداعى الى الحق بعرض أن يصطدم بقلوب غلف وآذان موقورة ، فإن لم يكن ذا لسان مشحوذ الغرار تثلمت مضاربه دون نفاذ ، فما أشد حاجته إذاً بمقول سحبان وبديهة عمرو ليكتسح ما عسى أن يستهدف له من حوائل ، فرب لسان أقطع من حسام ، وكلمة أنفذ من سهام .

ولن يكون المرء فى هديه كاملا حتى يكون بمختلف العلوم حافلا ، وبخاصة ذلك التنزيل المحكم ، وسنة من خص بجوامع الكلم ، وروائع الحكم ، فبما لعمرى البحر الخضم منه الصدر وإليه الورود ، وحتى يكون له سهم معرفة فى كل ماله مساس بالخلق والدين من مستحدثات الحضارة ، وولائد الترف ، فيكون أقدر على ضرب الأمثال ، وأعرف بإيراد الشواهد ، فيقع المعنى من النفس موقعه ممن لمس بيده وأبصر بعينه ، وإلا فماذا تجدى من اللسان ذرابته ، ومن الذهن تفتقه إذا تفه الغذاء وقلت البضاعة ؟

وإنك لأساة الأجسام قد تعوزهم الدربة والفراهة أن يأسوا قرحة هى بمرأى العين وفى متناول اللمس ، فما ظنك بأساة قوم هم بصدد أن يجتثوا أصول أدواء قد امتزجت بنفوس سقيمة ، فاستحالت فيها الى سلائق ، وتحولت الى طباع ، أنهم لعمرى أشد ما يكون حاجة الى حذق ومهارة يتلاءمان مع خطورة الداء ، وتعهده بناجع الدواء ولكن أنى لآسى النفوس أن يضع الهناء مواضع النقب إذا لم يك دارسا عناصر الداء ، مطلعا على خبيئة أمره ، ومداخل طبعه ، وهل يعرف بواطن الأدواء غير أساة الحى ، ويحسن نزع السهام غير براة القسى ؟ ؟ أجل :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

لهذا كان واجبا أن يكون ناصح القوم من سلالة البيئة التى نشأ منها وبعث فيها ، هنالك يتوى على اجتثاث جراثيم الفساد من مغارسها ، وعلى نزع بذور الشر من منابتها ، ومن هنا تتجلى حكمته جل شأنه فى جعل رسالته إلى الأمم على لسان رسل منهم ، ذلك أن وسائل الهداية ، ومناهج الرشاد أبقى ما تكون أثراً فى نفسك إذا جاءتك عن طريق إنسك وابن إنسك ، فإن النفس بابن بيئتها آنس ، وإلى نشء قبيلتها أميل ، وهذا هو سر توفيق الرسل عليهم السلام فى مهمتهم على خطورتها ، ونهوضهم بالعبء على فداحته ، وهاك ترجمة زياد ابن أبيه ، تنبئنا كيف كانت البصرة

مكتبتنا العربية

جمرة مشتعلة وجذوة متقدة ، تعاقب عليها دهاة الولاة فما كانت تهدأ لها ثائرة إلا ريثما تعجم عود واليها . ثم لا تلبث أن تتوهج نارها ، ويندلع لهيبها رغم ما كان عليه الولاة من دهاء ، ذلك أنهم لم يهتدوا إلى بيت الداء ، ومضوا يعالجون عن غير خبرة :

وإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

حتى قدمها داهية دهاة العرب ، وباقعة بواقعهم ، زياد ابن أبيه فسل أحقادها ، وداوى أدواءها ، وألان قناة طغاتها ، وقمع نوازى أهوائهم حتى هدأت ثائرتها ، واستقامت الجماعات على لاحب السنن .

فهل تدرى رعاك الله ما السر فى توفيق زياد إلى ما لم يوفق إليه غيره ؟ إنه كان من قطان البصرة منذ الحداثة ، ومن السابقين الأولين إلى استيطانها ، فكان أهدى سبيلا إلى مواطن الداء ، وأصدق خبرة بناجع الدواء .

وإذا علمنا أن لسلطان الهوى هيمنة على النفوس من قديم ، وأنها بطبعها أسلس ما تكون قيادا لجناة الغواية وغواتها ، وأشد ما تكون نفورا من دعاة الفضيلة وحماتها ، كان لابد لكبح جماحها من خرط القتاد ، أو ازدراد الحسك ، وليس للداعى إلى الحق حصن ترتد دونه سهام غضب الطبيعة البشرية غير درعى الصبر والحلم ، فبهما لعمرى القوة الكاسحة ، والحسام القاصم ، بهما تدرع الرسل عليهم السلام ، فكسحوا جيوش الجهالة ، وقصموا ظهور الصعاب ، حتى أشرفوا على الغاية وبخاصة نبى هذه الأمة ، لقد ذاق فى بث دعوته الأمرين ، واحتسى فى نشرها عصير الغضا ، وما كان يزيده عنت القوم وعنادهم إلا صبرا وحلما ، كعود زاده الإحراق طيباً ، وما ظنك بمن كان يتعقبه قساة القلوب ، وجفاة الطباع من مشركى العرب بأنواع الأذى ، ويتعاورونه بضروب العذاب ، غير وانين ولا متهاونين فما كان يزيد على أن يدعو لهم بالهداية والتوفيق قائلا : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ، ولم يثنه كل ذلك قيد أنملة عن المضاء فى عزمه حتى تم له الأمر ، وأونس الرشد من الملة ، وهكذا من سار على الدرب وصل .

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وخليق بمن نصب نفسه لهداية الناس أن يكون سهل الخليقة لين العريكة رحب

مكتبتنا العربية

الصدر ، لا تستفزه رعونة الجاهل ، ولا تستخفه عوراء البذيء ، يأخذ الناس باللين ، ويجادلهم بالحسنى ، فذلك أعون على إحقاق الحق ، والبلوغ به إلى أعماق النفوس ، وما عهدنا فى عالم الجدل أن العنف طريق من طرق المحاجة ، ولا وسيلة من وسائل الإقناع ، كيف ولن أراك تستطيع كبح جماح دابتك حتى تحرك لها حوارها ، ولا أن تسلس قيادها حتى تنزع لها قرارها ، وعلى هذه السنة جرى النبي صلى الله عليه وسلم فى نشر دعوته ، فكان يتحرج جهده أن تأخذه سورة الغضب فى محاجه خصومه ، فيتشعب الصدع من حيث يريد رأبه ، حتى فى أحرج المواقف يوم زعموه ضالا لم يأذن للغضب أن يفك له حبوة ، ولا أن تمس له أناة ، وأبى عليه حلمه إلا أن يخاطبهم بقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ، لم يشأ عليه السلام أن يعزوهم إلى الضلال فيثير حفائظهم ، وهو أحرص ما يكون على استمالتهم وتأليفهم سيما وأن الإسلام كان فى نشأته الأولى أحوج ما يكون إلى تكثير سواده ، وبهذه الملاينة وأخذ الأمور بالرفق استطاع هذا النبي الكريم أن يئد الخصومة فى مهدها ، وأن يقيمهم على السنن القويم ، ويسلك بهم جادة الطريق ، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله .

وهكذا ينال باللين والرفق ما لا ينال بالعنف والقسر ، فما كان زياد ليقمع فتنة البصرة ، ويضبط أمر العراق بحد السيف ، وقوة الكتائب ولكن بأن فتل لها مابين الذروة والغارب ، وعلى هذا المنوال نسج معاوية رضى الله عنه ، فعد أحد دهاة العرب . وهاك سياسته : إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت .

وها هى ذى الدولة البريطانية على جبروتها ، جل اعتمادها فى بسط نفوذها على قوة اللين والهوادة ، ولهذا سمى ساستها دهاة العالم ، فأحر باللين من حسام هو فى طراوته أمضى شباتا من تلك الصمصامة فى يد الزبيدى ، أو القوس فى كف باريها .

وما كان غراس الدعوة إلى الله ليثمر فى تربة كائنة ما كانت ، حتى يكون فى البذر خاصية الإثمار ، فعلى مسدى النصيحة أن يبدأ بنفسه ، فيقوّم من أودها ، ويصقل ما صدأ من خلالها . هناك يثمر غرسه ، ويفيد درسه وإلا فمن العبث أن تنسج

مكتبتنا العربية

لغيرك حلل النصح وأنت عارى السوءة ، وتنظم له قلائد الوعظ وأنت عاطل الجيد ومن البلية أن .

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيما يصح به وأنت سقيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فلتطبع الأسجاع بطوابع وعظك ما شئت ، ولتقرع الأسماع بجواهر لفظك ما أردت ، ولتأت بالمعجزات من لفظك المختار ، وأساليبك المصطفاة ، فلن تجد إلا وقراً فى الآذان ، وإلا قلوبا فى أكنة مما تدعو اليه ، ومن بينها وبينك حجاب ما لم تكن بفعالك أوعظ منك بمقالك .

أرأيتك لو انتظمك حفل من الناس قام يخطبهم واعظ فخلبك سحر بيانه ، وأملتك خمرة إحسانه ، ثم تتبعته فاذا هو عبد شهوته ، يسخره أبو مرة أنى شاء ، وحيثما أراد ، ثم رأيته وقد عاد يصوغ الفرائد وعظا ، وينظم القلائد نصحا ، أكنت تعير للفظه أذنا ، وتقيم لموعظته وزنا ؟ إنهم لشر أداة شر على المجتمع ، أولئك الذين يدعون إلى مكارم الأخلاق ولا خلاق لهم ، ويأمرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم ، وقانا الله شر ذلك السم فى الدسم ، والطلاء على الورم .

وأحر بالداعى إلى الله ألا يكون هدفا لسهام الأغراض . تكأة لعوامل الأهواء ، فما دخل الغرض أمراً إلا أفسده ، ولا عبث الهوى بشىء إلا أفقده ، وليكن له من العفاف ما يصون له عرض كرامته ، ويحفظ عليه حرمة نصحه وإرشاده فما انتهك لكرامة عرض تولى العفاف حراسته ، وما هتك لنصيحة ستر تذود عنه الكرامة ، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه فجنبها مصارع الفضول ، ونأى بها عن مظان الصغار .

وعلى الجملة إن من أوتى لسانا قادراً ، وبيانا ساحراً ، وذيلا نقياً ، وقلباً تقياً لايخاف فى الحق لومة لائم . ولا يخشى فى الله صولة ظالم ، لا تميله الرغبة عن الجادة ولا تقصيه الرهبة عن سنن الحق ، وكان حليف حزم وعزم ، خدين حلم وعلم ، فقد وفق أن يكون من الهداة المصلحين .

مكتبتنا العربية

أبو العيناء الضرير

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

وأبو العيناء هو ذلك الأديب الممتع الذى قدمت للقارىء الكريم صورة عن نشأته وبعض أخباره . والآن أسوق طرفا من أخباره آخر فيه أدب وفيه فكاهة ، ثم أعرض لصورة من ملحه وأجوبته ومهاتراته ، وصورة أخرى عن بلاغته وما كان له من يد طولى فى كل من النثر والنظم .

وأبدأ بذكر قصة خروجه من البصرة ، وهى قصة تستضحكك وتحملك على روايتها والتحدث بها ـ حدث جماعة من المؤرخين عن أبى العيناء ، وحدث عن نفسه وسبب خروجه من البصرة بما ملخصه أن أبا العيناء مر بسوق النخاسين (بائعى العبيد) يوما ، فرأى غلاما ينادى عليه بثلاثين ديناراً ، وهو يساوى ثلثمائة ، فاشتراه وكان يبنى داراً فدفع اليه عشرين ديناراً ليوزعها على الصناع فوزع عشرة منها واشترى بالباقى ثوبا ، فجرى بينهما ذلك الحديث :

أبو العيناء — من أمرك بهذا ؟

الغـــلام — يا مولاى لا تعجل فان أهل المروءات والأقدار لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعلا يعود بالدين على مواليهم .

قال أبو العيناء فقلت فى نفسى قد اشتريت الأصمعى ، ولم أعلم قال وكانت فى نفسى امرأة أردت أن أتزوجها سراً من ابنة عمى فقلت له يوما : أفيك خير ؟

فقال إى لعمرى ، فأطلعته على الخبر ، فقال أنا نعم العون لك فتزوجت المرأة ودفعت اليه ديناراً ليشترى أشياء فيها سمك هازبى [1] فاشترى سمكا (ماراهى) فقلت أليس قد أمرتك بشراء الهازبى ؟ قال : بلى ولكنى رأيت بقراط يقول إن الهازبى يولد الصفرا والمارماهى أقل غائلة . فقلت له : يا ابن الفاعلة . أنا لم أعلم أنى

---

[١] نوع من السمك والمارماهى نوع آخر .

مكتبتنا العربية

اشتريت جالينوس ، وضربته عشر مقارع ، فلما فرغت أخذنى وضربنى سبع مقارع وقال : يا مولاى . الأدب ثلاث والسبع فضل وذلك قصاص فضربتك هذه السبع خوفا عليك من القصاص يوم القيامة . فغاظنى جداً فرميته فشججته فمضى من وقته إلى ابنة عمى وقال لها : يا مولاتى . الدين النصيحة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا ، وأنا أعلمك يا مولاتى أن مولاى قد تزوج واستكتمنى ، فلما قلت له لابد من تعريف مولاتى ضربنى بالمقارع وشجنى . فمنعتنى من دخول الدار والانتفاع بشىء مما فيها ووقعنا فى تخليط ، حتى طلقت امرأتى الثانية وصلح أمرى مع ابنة عمى وسمت الغلام الناصح . فلم يكن يتهيأ لى أن أكلمه ، فقلت أعتقه واستريح فلعله أن يمضى من عندى إلى النار . فلما أعتقته لزمنى ، وقال الآن وجب حقك على . ثم أراد الحج فجهزته وزودته فغاب عنى عشرين يوما ورجع فقلت : لم رجعت قال : قطع الطريق وفكرت فإذا الله يقول (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) فكنت غير مستطيع وفكرت فاذا حقك أوجب فرجعت . ثم أراد الغزو فجهزته أيضا لذلك وشخص ، فلما غاب عنى بعت كل ما أملكه بالبصرة من عقار وغيره وخرجت منها خوفا أن يرجع . حكاية طريفة تصور لك ما كان من أمر غلام يساوى ثلثمائة فباعه أصحابه بثلاثين لأنه مختل التفكير ، كثير الخلاف على غزارة مادته وقوة حجته ، ولطف مأخذه ، وتصور لك ما يكون من أمر المرأة فى مختلف الأزمان وتحكمها فى أمر الرجال وسيطرتها إلى ذلك الحد الذى جعلها تخرج الرجل من بيتها فلا يملك إلا أن ينزل على طاعتها ، وتصور لك ضعف أبى العيناء أمام قوة ذلك الغلام الذى أخرجه من مستقره بعد أن أعيته الحيل فى أمره .

وانتقل أبو العيناء إلى بغداد ، فأخذ ينمى معارفه ويوسع مجال ثقافته . ويجمع الناس من حوله فيحدثهم بما فتح الله عليه من رواية بعيدة المدى وأدب جم وغير وكان ذلك بعد بلوغه سن الأربعين ، وقد تم نضجه وبلغ أشده واستوى ، ويظهر أنه مكث بها مدة لا تقل عن مدته بالبصرة ، وخرج منها فى آخر حياته ليموت بالبصرة ، وقد ذكر أنه كان فى سفينة تحمل ثمانين نفساً وأنها غرقت فما سلم غيره على عمى بصره وقلة حيلته ، فلما صار إلى البصرة مات . فسبحان مصرف الكائنات .

ولعل القارىء الكريم فى شوق أن يرى بعض ما اشتهر به ذلك الرجل

مكتبتنا العربية

من ملح ونوادر وأجوبة مسكتة ، وفى كتب الأدب من ذلك الشيء الكثير بعضه فى معجم الأدباء وبعضه فى زهر الآداب وبعضه فى تاريخ بغداد وفى تاريخ ابن خلكان وغيرها .

وفى بعض ذلك الطريف المقبول وفى بعضه الماجن وفى بعضه الفاحش الممسوخ وسأحاول أن أصور للقارىء وضع هذا الرجل بما لا أخرج به عن حد الكمال .

وتستطيع أن ترد هـذا المعنى إلى جهات ثلاث : محادثاته مع المتوكل الخليفة ، الذى كان يحبه ويؤثره ، ومحادثاته مع الولاة والوزراء ، ومحادثاته مع غيرهم من الدهماء أو من أصحابه .

فأما محاوراته مع المتوكل فنذكر منها ما يأتى :

قال له المتوكل يوماً هل رأيت طالبياً (من آل على) حسن الوجه قط فقال متخلصاً من الورطة يا أمير المؤمنين . أرأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا .

المتوكل — لم تكن ضريراً فيما تقدم وإنما سألتك فيما سلف .

أبو العيناء — نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه .

المتوكل — تجده كان مؤاجراً وتجدك كنت قواداً عليه .

أبو العيناء — وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين أترانى أدع موالى على كثرتهم وأقوم على الغرباء .

المتوكل — أسكت يامأبون — أبو العيناء — مولى القوم منهم .

قال المتوكل : أردت أن أشتفى منهم به فاشتفى لهم منى .

وهذه محادثة تدل على مبلغ استهتار المتوكل وتنزله ، وعلى غلوه فى التحامل على العترة الكريمة .

وقال له المتوكل يوماً : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . فقال على البديهة « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

وقال له فى حديث جرى : إن إبراهيم بن نوح النصرانى واجد عليك فقال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . وقال له إن جماعة من الكتاب يلومونك فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لئامها

مكتبتنا العربية

وقال له أكان أبوك فى البلاغة مثلك فقال : لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأى عبداً له لا يرضانى عبداً له .

وكان فى عهده رجل اسمه نجاح بن سلمة ، وشرب نجاح هذا مع موسى بن عبد الملك فاغتاله موسى .

فلما اجتمع أبو العيناء بالمتوكل قال له المتوكل ما تقول فى نجاح بن سلمة ، قال ما قال الله تعالى : « فوكزه موسى فقضى عليه » . فعاتب بعض الوزراء أبا العيناء على ذلك الإغراء .

فقال له أبو العيناء والله ما استعذبت الوقيعة فيه حتى ذممت سريرته لك فأمسك عنه خوف لسانه .

قال له المتوكل من أسخى من رأيت ؟ قال ابن أبى دؤاد فقال المتوكل : تأتى إلى رجل رفضته فتنسبه إلى الكرم ، فانظر كيف تدارك الموقف على نفسه . وكيف دافع عن قوله قال : يا أمير المؤمنين إن الصدق لا يكون فى موضع من المواضع أنفق منه فى مجلسك . وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود ، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد . وسخاء الفضل والحسن ابنى سهل منسوب إلى المأمون وجود ابن أبى دؤاد منسوب إلى المعتصم . فإذا نسب الناس الفتح وعبيد الله إلى السخاء فذلك سخاؤك . قال صدقت فمن أبخل من رأيت . قال موسى بن عبد الملك قال : وما رأيت من بخله قال : رأيته يخدم القريب كما يخدم البعيد . ويعتذر من الإحسان كما يعتذر من الإساءة ! قال قد وقعت فيه عندى مرتين ، فالقه واعتذر إليه من غير أن يعلم أنى وجهتك . فصار إلى موسى واعتذر كل منهما إلى صاحبه ثم لقيه موسى فقال قد اصطلحنا فما لك لا تأتينا . قال « أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس » (يريد نجاحا السابق) فقال موسى ما أرانا إلا كما كنا .

ولما قيل له إن المتوكل قال لولا أنه ضرير لنادمناه . قال إن أعفانى من رؤية الأهلة وقراءة نقش الفصوص فأنا أصلح للمنادمة .

وأما أحاديثه وأجوبته مع الوزراء والكبراء فكثيرة ، نذكر منها أيضاً ما لم يشتد خروجه . قال له عبيد الله بن سليمان الوزير فى مرة : أعذرنى فإنى مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم نحتج إليك . وأنشده :

فلا تعتـــذر بالشغل عنا فإنمـا تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

مكتبتنا العربية

ثم قال : يا سيدى قد عذرتك فإنه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك .

ودخل عليه يوماً فشكا إليه حاله . فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر . قال : كتبت إلى رجل قصّر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة محن الدهر . قال : أأنت أخذته . قال : وما علىّ أعز الله الوزير فى ذلك قد اختار موسى قومه سبعين رجلا فما كان منهم رشيد . واختار النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً . واختار على بن أبى طالب أبا موسى حاكما فحكم عليه .

ولما استوزر صاعد عتب إسلامه صار إليه أبو العيناء فقيل له يصلى فعاد فقيل يصلى فقال معذور لكل جديد لذة .

ووعده ابن المدبر ببغلة ، ثم لقيه فى الطريق وقال له كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بلا بغلة ، فضحك وبعث بها إليه . وسئل يوماً عن مالك بن طوق فقال : لو كان فى زمن بنى إسرائيل ونزل ذبح البقرة ما ذبح غيره ، قيل فأخوه عمر فقال : كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ومن ملحه مع سائر الناس أن رجلا زحمه بالجسر على حماره فضرب بيده على أذن الحمار وقال يا هذا قل للحمار الذى فوقك يتحول : الطريق .

ومر يوماً على دار عدو له فقال : ما حال أبى محمد ، قيل على ما تحب قال : فما لى لا أسمع الرنة والصياح . وقيل له : إلى متى تهجو الناس وتمدحهم فقال ما دام المحسن يحسن والمسىء يسىء وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب تلسب النبى والأمى . وقالت له قينة ، هب لى خاتمك وأذكرك به فقال أذكرى أنك طلبته منى ومنعتك وكان له صاحب يلقب بابن مكرم وله معه مهاترات كثيرة يحسن بالقارىء أن يرجع إليها فى كتب الأدب فقد كدت أخرج إلى حد الإملال على أن فيها مالا يليق .

وأما بلاغته فتتجلى لك فى بعض ما مر بك من محادثاته وله كتب طريفة أدبية تزيدك إيماناً بمبلغ فضله فى هاته الناحية ، قال صاحبه محمد بن مكرم الكاتب : من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع فقد ظلم . كتب إلى عبد الله بن سليمان يطلب غلاماً اسمه كافور . قد علمت أصلحك الله أن الكريم المنكوب أجرى على الأحرار من اللئيم الموفور ، لأن

مكتبتنا العربية

اللئيم يزيد مع النعمة لؤماً ، والكريم لا يزيد مع المحنة إلا كرماً . هذا متكل على رازقه ، وهذا يسيء الظن بخالقه ، وعبدك إلى ملك كافور فقير ، وثمنه على ما اتصل بي يسير ، لأنه بخدمته السلطان يعرفني الرؤساء والإخوان فإن سمحت به فتلك عادتك ، وإن أمرت بأخذ ثمنه فما لك مادتي أدام الله دولتك ، واستقبل بالنعمة نكبتك . فأمر له به .

وجدير لعمري بمثل هذا الأسلوب أن يعطف النفوس الكريمة . وبين يدي الآن عدة من رسائله أخفها وأمتعها ، وأعذبها وأظرفها . وأدلها على ما كان فيه من عبث ورقة ما كتب به إلى صديق له ولي ولاية يقول فيه : أما بعد ، فإني لا أعظك بموعظة الله . لأنك عنها غني . ولا أخوفك إياه لأنك أعلم به مني ولكني أقول كما قال الأول :

أحار بن عمرو قد وليت ولاية ... فكن حذرا فيها تخون وتسرق
وكائر تميما بالغنى إن للغنى ... لسانا به المرء الهيوبة ينطق

واعلم أن الخيانة فطنة والأمانة حرفة ، والجمع كيس . والمنع صرامة ، وليس كل يوم ولاية . فاذكر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً . فإن من الدور إلى الدور وأيام الولاية رقده ، فتنبه قبل أن تنبه ، وأخو السلطان أعمى . عن قليل سوف يبصر ، وما هذه الوصية التي وصى بها يعقوب بنيه ، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل وترك الآجل .

وأما شعره فقد ذكر صاحب زهر الآداب (ج ١٨ ص ٣٠٢ فما بعدها) طائفة صالحة دلت على أدب جم ، وذوق لطيف في أسلوب مكتنز ليس فيه فضل عن معناه ، متماسك قوي ولا سبيل إلى الاستيعاب ، فقد ضاق المجال ، ولكني أتعجل للقارىء الكريم بعض ما اختار منه . قال يهجو أسد به جوهر .

تعس الزمان فقد أتى بعجاب ... ومحا رسوم الفضل والآداب
وافى بكتاب لو انطلقت يدى ... فيهم رددتهم إلى الكتاب
جيل من الأنعام إلا أنهم ... من بينها خلقوا بلا أذناب

إلى أن قال :

ثكلتك أمك هبك من بقر الفلا ... ما كنت تلفظ مرة بصواب

مكتبتنا العربية

باب الأسئلة والفتاوى

حكم الله فى المسلم يقاتل المسلم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية سابقاً وعضو جماعة كبار العلماء.

تضافر الكتاب والسنة وإجماع الأمة على حرمة دماء المسلمين. وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم (جمع بشرة : وهى ظاهر جلد الإنسان) عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا. ألا هل بلغت ؟ ».

وروى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حمل علينا السلاح فليس منا » ، وفى رواية مسلم « من سل علينا السلاح فليس منا ». وفى رواية أحمد « من رمانا بالنبل فليس منا ». والمقصود من ذلك أن من حمل من المسلمين سلاحاً أو نبلا أو أى أداة للقتال يريد به قتال أخيه المسلم بغير حق مشروع فليس من الإسلام ولا من أهله فى شىء. ففيه دلالة - كما قال الحافظ ابن حجر فى الفتح وغيره - على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه ، لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاتل دونه لا أن يرعبه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله ، فضلا عن قتله. وهذه الحرمة وهذا الإثم العظيم والوعيد الشديد فيمن لا يستحل ذلك ، فأما من يستحله مكابراً للشارع فإنه يكفر باستحلال الحرام وفى البخارى من رواية أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يُشر أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده (يغريه حتى يحمله على قتل أخيه) فيقع فى حفرة من النار ، فقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن مجرد الإشارة بالسلاح إلى الأخ المسلم خشية أن يضله الشيطان فيصيب أخاه فيقع فى النار وفى رواية عنه « الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى الآخر بحديدة ».

وقال أبو بكر بن العربى : إذا استحق الذى يشير بالحديدة هذا اللعن

مكتبتنا العربية

فكيف بالذى يصيب بها ؟ وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديداً ، سواء أكان جاداً أم هازلا .

* * *

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . ولا يخفى ما فيه من المبالغة فى الزجر . والتحذير من الإقدام على قتال المسلم .

وفى حديث ابن عمر « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » فسمى الرسول من يفعل ذلك كافراً مبالغة فى التحريم والتحذير .

* * *

وأعظم من هذا إثماً وأشد تحريماً فى دين الله وشرعة الإسلام من يقدم على قتال أخيه المسلم فى صفوف أعداء الإسلام الذين يحاربون الشعوب الإسلامية لاستلاب حرياتها ، والاستيلاء على أوطانها ، ويقتحمون بالحديد والنار منازل الأهلين الآمنين لاستعمار البلاد واستعباد العباد ، ويكيدون للإسلام وأهله بمختلف الوسائل الشريرة ، فإن موالاتهم ، وإسداء المعونة لهم فى هذه الحروب - ولو مع غير المسلمين - بأية صورة من الصور ، فضلا عن القتال فى صفوفهم من أشد المحرمات وأكبر الكبائر ، وقد يكون كفراً بواحاً إذا اعتقد المسلم حله . وذلك لما فيه من القوة لهم ، ومن تمكينهم من أعناق المسلمين ، ورقاب الأرضين ، وإذلال الموحدين ، والقضاء على دين رب العالمين .

* * *

هؤلاء الأعداء ، حرب على الإسلام والمسلمين فى كل زمان ومكان ، فتحرم موالاتهم والثقة بهم ، وتحرم إعانتهم ونصرتهم فى السلم والحرب ، وخاصة إذا أرادوا المسلم على أن يقاتل أخاه المسلم ، أو يكيد له أو يضعف من شأنه ويخرب فى دياره ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقال تعالى : (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) .

وقال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،

مكتبتنا العربية

ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبـــدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى والأرض والله على كل شيء قدير) .

* * *

أما غير المسلمين الذين ليسوا حرباً علينا فيجوز مخالفتهم وعقد المعـاهدات معهم ما دام فى ذلك خير لنـا ، كما فعله رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى صـلح الحديبية . فإذا انقلب حرباً بعـد ذلك فلا عهد ولا محـالفة بل حرب ومناجزة .

واعلموا أن مع الصبر الظفر ، ومع الحذر السلامة ، وبالجهاد فى سبيل الله تنالون إحدى الحسنيين لا محالة .

وإن الذين يؤيدونكم وينصرونكم فى جهادكم من القبـائل هم المؤمنون حقاً ، الصادقون قولا وفعلا ، الذين صلحت قلوبهم وسلمت ضمائرهم من فتنة الخيـانة وموالاة الأعداء والخائنين .

أما أولئك الذين آزروا العدو وأيدوه وشهروا السلاح فى وجوه إخوانهم المسلمين فإن استحلوا ذلك كانوا مرتدين عن الإسلام ، خارجين عن حظيرته ، وأدنى حالهم الإثم العظيم ، والعذاب الشديد ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

على المسلم أن يحمل السلاح للدفاع عن دينه وماله وعرضه ووطنه ، فإن مات دون ذلك فهو شهيد ، سواء أكان المعتدى عليه مسلماً أم غير مسلم ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

مكتبتنا العربية

أعلام الأزهر

السيد علي ابو النصر المنفلوطي

المتوفى سنة (١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م)

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

ولد بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، وقدم إلى القاهرة صبياً ، ثم التحق بالأزهر لطلب العلم فيه . وقد شب مفطوراً على حب الأدب ، والتزود من فنونه ، فبرع فى قرض الشعر يافعاً ، ونظم الأزجال حدثاً ، ولم يلبث أن ذاع صيته وتسامع الناس به ، وكان طيب المفاكهة والمجالسة ، لطيف المسامرة والمؤانسة . حاضر الذهن قوى الجدل ، لا يغلب فى حوار ، ولا ينهزم فى مناظرة ، وكانت له مطايبات حافلة بالنكت الأدبية مع الحشمة ، والحذر مما تأباه النفوس الأبية [١] . فكانت له مكانة عند أولى الأمر وذوى الجاه ، يجلون قدره ، ويلبون شفاعته . اتصل بالبيت العلوى من عهد محمد على باشا إلى توفيق ، ورحل إلى القسطنطينية رحلتين أولاهما فى عهد محمد على باشا سنة ١٢٦٢ هـ حيث احتفل السلطان عبد المجيد بإعذار [٢] أنجاله ، وطلب من محمد على باشا أن يوفد للحفل وفداً من العلماء والأمراء ، فكان الشاعر فى طليعة الذين أوفدهم محمد على باشا إلى القسطنطينية ، وقد مدح شيخ الإسلام بقصيدة استجادها إذ قدمها إليه ، وبكى متأثراً ببعض أبياتها ، ثم سأله هل قلت فى القسطنطينية شيئاً؟ فأجابه بأن له بيتين يستحى أن يعرضهما (لكونهما من زيف الكلام) فقال تسمعهما إن شئت ، فقال :

وكنا نرى مصر السعيدة جنة ... ونحسبها دون البلاد هى العليا
فلما رأت دار الخلافة عيننا ... علمنا يقيناً أنها لهى الدنيا

---

[١] مقدمة الديوان للمرحوم أحمد باشا خيرى

[٢] أعذر الغلام ختنه كعذره بمذره . والقوم عمل طعام الختان .

مكتبتنا العربية

فتبسم شيخ الإسلام وقال له : إن البيتين جيدان من جهة الأدب ، ولكنك فى مدحك القسطنطينية فضلت مصر عليها ، لأنك جعلت مصر هى العليا ، والقسطنطينية هى الدنيا ، وفى علمك أن الدنيا تأنيث الأدون ، فيفيد النظم أن القسطنطينية دون مرتبة مصر ، فقال الشاعر مجيباً « حب الوطن من الإيمان » .

وأما رحلته الثانية إليها ، فكانت فى عهد الخديوى إسماعيل سنة ١٢٨٩ هـ حيث استصحبه إليها فى خلافة السلطان عبد العزيز ، وكان متقدمها إلى القسطنطينية متفقاً مع الاحتفال بعيد الجلوس ، فأنشأ الشاعر قصيدة بليغة مطلعها :

تبسمت الآمال عن لؤلؤ القطر ففاح شذاها فى الحدائق كالعطر

وكان مصراع تاريخها (جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر) .

ومما اتسم به أنه كان راجح العقل ، نافذ الرأى ، عالماً بالأحوال السياسية ، خبيراً بشئون الأمم ، محباً لتربية الأمة ، داعياً لتثقيفها ونهضتها .

وكان شعره شتيتاً غير مجموع ، حتى قيض له المغفور لهما محمد باشا سلطان وحسين بك حسنى ناظر المطبعة الأميرية إذ ذاك ، فجمعا أشتاته ، وضما متفرقه ، وعهد إلى المرحوم محمد افندى الحسينى رئيس مصححى المطبعة بجمعه فى ديوان صدر بخطبة الأخير ، وبترجمة للشاعر بقلم المرحوم أحمد باشا خيرى ناظر المعارف العمومية فى ذلك الحين .

هذا عدا ما كان له من الطرف والملح والمواليا والأزجال وغير ذلك ، مما عبثت به يد التفريط والإهمال .

شعره :

أقيس شعره بشعر عصره . فأراه شبيهاً به ، موافقاً له ، يتجه متجهه . وينزع نزعته ، وهو يميل إلى الجناس لكن فى غير استكراه ، ويطلبه لكن فى غير تكلف شديد ، ويورى غير أنه لا يلحف فى رجاء التورية ، ولا يرتصد لطلبها ، وتدور الصنعة فى شعره غير مفتون بها ، وإن تهيأت له فبغير إفراط ولا إسراف ، أما التاريخ الشعرى . فهو مغرى به متهافت عليه ، ملتزم له فى الجمهرة العظمى من شعره ، فمن تجنيسه قوله :

فى الحان قد جس معسول اللمى وترا فانهض لتسمع ألحان الصبا وترى

مكتبتنا العربية

فقد أوقع الجناس بين (الحان) وهو محل بيع الخمر ، و (ألحان) الصبا جمع لحن ، كما أوقعه بين الوتر الذى هو شرعة القوس ومعلقها الواقع مفعولا ، والفعل المضارع (ترى) مقرونا بواو العطف ، ويبدو لك تكلفه الجناسين ، إلا أنهما أقرب إلى القبول ، ومن تجنيسه أيضاً قوله :

أبدا تقلب فكرتى أيدى الأسى طوعا لأمر الدهر أحسن أو أسا

فقد أوقع الجناس بين لفظ الأسى بمعنى الحزن ، والفعل الماضى (أساء) محذوف الهمزة ليتم الجناس بحذفها ، والجناس هنا مقصود للشاعر ، إلا أنه لم يبلغ من الثقل مداه . ومن تجنيسه أيضاً قوله :

كم ذا أحاول نصحا بالعظات وفى ظنى وجود سميع بالعهود وفى

فالجناس بين حرف الجر (فى) مقرونا بالواو ولفظ (وفى) الصفة المحذوف إحدى يائيه ، وهو أقل ثقلا من صاحبه الماضى ، ومن جناسه المقبول قوله :

رياض المجد أهدت نفح طيب فقلت مهنئا يا نفس طيبى

ويغلب أن يلتزم الجناس فى مطالع قصائده . وهو فى هذا الموضع أكثر طلبا له . واستشرافا إليه .

ومن التورية التى يستعملها فى شعره قوله :

على مضض صبرت وكم أدارى بتاريخ الغرام وأنت دارى
يجاذبنى الهوى فأذوب وجدا ويسلبنى النوى ثوب اصطبارى
وعذالى دروا ما بى فلاموا كأن هوى الأحبة باختيارى
وإن سألوا عن اللامى ودمعى أقول كلاهما لا شك جارى

فقد ورى بقوله (جارى) عن اسم الفاعل من جرى بمعنى سال ، والاسم الذى هو بمعنى مجاور مضافا لياء المتكلم .

ويقول فى رجل يدعى العلم يسمى (النخلى) :

بروض الفضل أغصان خلت عن حلية الفضل
سألناها أجابتنا دهتنا غلطة (النخلى)

مكتبتنا العربية

فيحتمل أن يراد « الشجر » أو اسم الرجل ، ومما يورى به قوله :

حروف دمعى وسائل والدمع جار وسائل

أى أن قطرات دمعه الشبيهة بالحروف وسائل ترضى الحبيب ، فقد جانس بين (وسائل) الأولى جمع وسيلة و (وسائل) الثانية التى هى اسم فاعل من سال بمعنى جرى مقرونا بالواو ، ثم فى وسائل الثانية تورية إذ يحتمل أن تكون اسم فاعل بمعنى جار أو اسم فاعل من سأل بمعنى طلب .

ومن شعره التاريخى قوله :

يا من بطالعه الأسمى حوى شرفا يزين بدر علاه قبة الفلك
أنت الذى بحلى الأخلاق زدت علا لا زلت ترقى بفضل المنعم الملك
إسعاد نجمك إذ لاحت بشائره أرخت أوليت بكباشى وأنت زكى

ولا شك أن هذا التاريخ أضعف الشعر وحال دون روعته وجماله ، ولكنها سنة العصر الذى أغرق فيه وغالى ، وله فى تاريخ لحية :

لما اذدهى روض المحاسن والبها وبدا به الريحان وهو شريف
خط العذار كما تحب صحيفة تاريخها صان الجمال نظيف

وهو شعر ضعيف متهافت كما ترى ، ومما لا أسيغه ، وصف الريحان بالشرف ولست أدرى متى يكون الريحان شريفاً أو غير شريف ، فلعله يقصد أن الريحان وهو أخضر الأغصان يبدو كالعمائم الخضر التى هى سمة الأشراف .

وقد يولع بالتاريخ ، فيجعل فى كل شطر تاريخا كما قال :

بشير الهنا لاحت بيمن قدومه بدور بها نور البشائر قد صفا

وشعره أنذاك لا روعة فيه ، ولا تتنسم منه روح الشعر بحال .

غير أنه يتناول كثيراً من الأغراض فى شعره ، ويتسع أفقه لألوان مختلفة من الشعر فيمدح ويهنىء ، ويرثى ويعتب ، ويشكو ويشكر ، ويتغزل ويصف وينصح ، وتجد فى شعره الحكم والمدائح النبوية ، والقصائد الوطنية ، والخمريات بغير اغراق ، كما تجد فيه الوداعة والحماسة ، ويتناول الإلغاز بل يكثر منها فيجىء شعره بها معمى مستغلقا ، ويطول نفسه فى بعض القصائد حتى لتبلغ مائة بيت

مكتبتنا العربية

إلا أن شعره أقرب إلى شعر العلماء منه إلى شعر الفحول من الشعراء ، وشعره وسط بين الإجادة والغثاثة ، والضعف والقوة .

فما قاله متغزلا :

إلى الأوطان يجذبنى الهمام ... ولى قلب يقلبـــه الغرام
وفى دمعى غرقت ونار وجدى ... بتـذكار الديار لهـا ضرام
ولى فى كل منتزه حديث ... إذا كررته ناح الحمام
وما عندى من الأشواق خاف ... ولو أبديته لبكى الغمام
ويوم وداعهم كانت حياتى ... مكابرة وللدمع انسجام
أراهم أينما كانوا بقلبى ... وفى نومى وهل يغنى المنام
وقائلة إلام تحن شوقا ... وتعلو جسمك المضنى السقام
أتحسب أن من تهواه باك ... عليك ولو أضربك الهيام ؟
فقلت لها فديتك إن نومى ... على لبعدهم أبدا حرام
وهل يجدى أخا الوجد المعنى ... إذا ضنوا بزورته اعتصام ؟
دعينى فالنصيحة لو أفادت ... لضاع الحب وانقطع الملام
كلفت بحبهم فألفت سهدى ... ولم يخطر على جفنى المنام
أهيم بهم ولى فيهم شجون ... إذا ظعنوا بقلبى أو أقاموا
أخلائى احفظوا عنى حديثاً ... يسر به المقلد والإمام
قتيل الشوق يحييه التدانى ... وينعشه التواصل لا المدام
فان مر النسيم بكم سلوه ... فأخبار الهوى منه ترام
وساعات الوصال كلمح طرف ... لدى المضنى ويوم البعد عام

هذه أبيات ساقها الشاعر متغزلا ، فجاءت من أجود ما قال رقة معنى ، وخفة روح ، ووضوح أسلوب لم يسع الشاعر فيها وراء صنعة لفظية أو محسن من المحسنات البديعية ، ولم يمس طرفا من ذلك إلا الجناس الذى شكه شكا وتناوله برفق فى عجز البيت الأول بين قلب ويقلبه .

ومما قاله فى شكوى الزمان :

بشكوى الليالى كيف لا أتعلل ... وديمة دمعى دائمـــاً تتهلل

مكتبتنا العربية

رمانى زمانى فى مـــكايد مكره ... وفى وهمـــه أنى له أتذلل
أكابد ما لا يستطاع من الأسى ... وأحمل منـــه فوق ما يتحمل
وجربت أبناء الزمان بأسرهم ... فلم أر منهم من عليـــه يعول
وسالمت إخوانا بدالى أنهم ... على نقض بنيان الصداقة عولوا
فيادهر ماذا تبتغى من مجرب ... وقد شاع فى الآفاق أنك تجهل
تقدم من لايستحق وتزدرى ... بمن هو أولى بالجميل وتعجل
تبرأت من أهل المعارف والتقى ... وهم دولة الإسعاد إن كنت تعقل
وقربت أربات الجهالة للعـــلا ... كأنك لاســـتظهارهم تتجمل

فهذه الأبيات من أجود ما قيل فى شكوى الزمان صدرت من الشاعر مصورة عبث الزمان به وتجهمه له ، وما يكابده من أساه الذى لا يستطاع ، وما يحمله مما يشق حمله ، وما لقيه من إخوان جربهم فلم يرفيهم من عليه المعول ، وإخوان سالمهم لما بداله من تعويلهم على نقض الصداقة ونكث العهد ، وكان جميلا من الشاعر ما بينه من جهل الزمان من تقديم من لا يستحق والزراية بمن هو أولى بالجميل ، وبراءة الزمان من أهل المعارف والتقى ، الذين هم دولة الإسعاد لو كان يعقل ذلك ، وتقريب أرباب الجهالة وإيثارهم بالعلا كأنه يتجمل لاستظهارهم ، فهى أبيات صادقة فى شكوى الليالى وصدق التجربة ، وغدر الإخوان ، وعبث الزمان ، كل ذلك مسوق بأسلوب غير نازل ، ورصف رصين لم يتهالك على محسن ولا زخرف .

ومما قاله يمدح به النبى صلى الله عليه وسلم :

إذا هتفت بمدحتـــك الموالى ... وأنشد شـــعره فيك البديع
وحدث عنك من يروى حديثاً ... وصاغ من الثنا ما يستطيع
فما بلغوا اليسير ولو أطالوا ... وكيف وأنت فى الأخرى شفيع ؟
إليك شكايتى من كل ذنب ... وحصن حماك لى حرز منيع
ومن يرجوك يسعف بالأمانى ... ومن قصـــد المشفع لا يضيع
ملأت سرادقات الكون فضلا ... وجاهك ســـيدى جاه رفيع
فمن للمذنبين ســـواك يرجى ... إذا ما استعظم الهـــول الفظيع ؟

مكتبتنا العربية

وهو شعر سهل رصين تتمثل فيه روح الشاعر المؤمن الذى يلتمس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون له حرزاً منيعاً ، وشفيعاً يغفر به كل ذنب ، وإن كان فى نفسى شىء من اللفظ الأخير (الفظيع) . وقال يعاتب بعض أصحابه :

لعمرك ما البواتر كالعصى ... ولا الطّرف المذلل كالعَصى[1]
ولا فلق الصباح إذا تبـــدى ... لذى بصر يقـــابل بالعشى
أراك رفعت أدنى الناس قدراً ... وآثرت الدنى على على
شققت عصا الوفاق وبعت غبنا ... صـواب الرأى بالخطأ الجلى
وبدلت الأعزة من قريش ... وأبنـاء الأماجد بالدنى[2]
ستعرف ما جهلت إذا التقينـا ... وبان لك الجبان من الكمى[3]

ولعل هذه الأبيات من أحسن شعره وأبلغه ، وأحفلها بالتشبيهات المحكمة ، وفيها جناس مقبول بين حرف الجر (على) و (علىّ) وتورية لطيفة فى لفظ « علىّ » الذى يحتمل أن يكون وصفا مقابلا (للدنى) وأن يكون مشيرا الى اسم الشاعر (السيد على) . ومن رثائه قوله :

أنظرى أعينى الدوامى دواما ... إن غيث الكرام يأتى ركاما[4]
واستمدى من حبة القلب دمعا ... فلعل الدموع تروى أواما[5]
ومن السهد للجفون اكتحالا ... ودعى عنك فى الدياجى المناما
واسكبى الدمع خفية وجهارا ... واستحلى من البـــكاء الحراما
واقرئى فى صحيفة الدهر سطرا ... نمقته يد القضـا فاستقاما
واكتبى ما جنته أيدى المنـايا ... حيث لم تبق للأنام إماما

فهذه من أصدق المرثيات وأرقها ، وأخصبها معنى ، وأحفلها تصويرا للجزع والأسى ، ولم يكن الشاعر منصرفا فيها الى الطلاء اللفظى اللهم إلا ما يكلف به من الجناس فى مطالع قصائده ، فإنه أوقع الجناس المتكلف بين (الدوامى) و (دواما) و (الكرام) و (ركاما) ، ولكنه لم يستنفد جمال الأبيات ، ولم يذهب بروعتها ؟

---

(١) البواتر السيوف القاطعة . الطرف الكريم من الخيل ـ المذلل السهل المنقاد .
(٢) الدنى : كرضى الرجل الفاحش . (٣) الكمى : كغنى الشجاع أو لابس السلاح .
(٤) الركام السحاب المتراكم . (٥) الأوام كسحاب ، العطش أو حره .

مكتبتنا العربية

تسمية الأشياء بغير أسمائها

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتولى عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدى رضى الله عنهما قال : « استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فلما قدم . قال هذا لكم وهذا أهدى لى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « أما بعد : فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله ، فيأتى فيقول هذا لكم وهذا هدية أهديت إلى ؛ أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هدية إن كان صادقا ، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه ، إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رئى بياض ابطيه ، فقال اللهم هل بلغت » .

شرح المفردات : الرغاء . صوت الإبل . الخوار صوت البقر . تيعر تصيح والعيار صوت الغنم .

هناك جم غفير من الناس يطيب لهم أن يضحكوا على الناس أو يضحكوا على أنفسهم ، فتراهم يسمون كثيراً من الأشياء بغير أسمائها ، فهم يسمون الذل تواضعا والكبر ترفعاً ، والإسراف جوداً ، والبخل اقتصاداً ، والكذب سياسة ، والغش حصافه وهؤلاء ، إن كانوا يؤمنون بما يقولون ، فقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ، ولبس عليهم أمرهم من حيث لا يشعرون ، وأما إن كانوا لا يؤمنون بما يقولون ، ولكنهم يموهون على الناس فهؤلاء قوم منافقون ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، وهؤلاء جرءاء على الله ، وهذا الضرب من الناس بصنفيه عرفهم الإنسان قديماً وحديثاً ، ومن هؤلاء رجل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية الصدقة ، فاستغل نفوذ ، ومكانته ، وتقبل الرشوة ممن ولى أمرهم. وسماها لرسول

مكتبتنا العربية

الله صلى الله عليه وسلم هدية ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفرق بين الهدية التى لا تصدر إلا عن حب خالص وود قديم ، ولا يراد بها إلا توثيق العلاقات بين المتهادين ، وبين الرشوة التى هى أكل لأموال الناس بالباطل ، ولا دافع لها إلا الرغبة فى جاه المرتشى أو الرهبة من بطشه وجبروته ، وجعل الفرق بين الرشوة والهدية فرقاً واضحاً جلياً . فكل ما يقدم إلى من يتولى عملا عاماً إن كان يقدم إليه قبل أن يتولى هذا العمل . فهو هدية حتماً . لم يرد بها صاحبها جلب مغنم أو دفع مغرم ، وأما أولئك الذين لا تساق إليهم الهدايا إلا إذا أسندت إليهم الوظائف العامة فإنما تساق إليهم الرشاوى مسماة باسم الهدية ، وإن استطاعوا فى الحياة أن يفلتوا من قبضة القانون ، فلن يستطيعوا النجاة من الله سبحانه يوم القيامة ، فسيعرضهم الله على ملأ من الأولين والآخرين ، وقد صور النبى صلوات الله عليه فضيحتهم بقوله « فلا أعرفن أحداً منكم لقى الله تعالى يحمل بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تبعر » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن الرشوة بأسلوب النفى (لا أعرفن) مع التأكيد وفيه من المبالغة ما فيه . كأن هذا الأمر لا ينبغى أن يقع ، لمنافاته لما يجب أن يكون عليه المسلم الصادق ، وتصوير النبى الأكرم لهذه الفضيحة الشنيعة هذا التصوير البليغ مما يبعث الخشية فى قلوب هؤلاء المتساهلين وليس هناك ما يمنع عقلا أو نقلا من أن هذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بحقيقة ما يلقاه هؤلاء المرتشون يوم القيامة . ولما كانت الرشوة من أخطر الأمراض الاجتماعية التى تصيب المجتمع ، فتقوض أركانه ، رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه الى السماء ، ثم قال تلك المقولة المشهورة التى لا يقولها - كما يعلم المتتبعون للسنة - إلا فى الأمور الهامة : « اللهم هل بلغت » .

وكيف لا تكون الرشوة من أخطر الأدواء التى تهد كيان المجتمع ، وهى متى انتشرت فى أمة فقد استحقت سخط الله ومقته . وكتبت بيدها كتاب شقائها ، فهى تجعل الحق باطلا والباطل حقا ، وترفع قوماً حقهم أن يخفضوا ، وتخفض قوما حقهم أن يرتفعوا ، وعندئذ يوسد الأمر الى غير أهله ، ومتى وسد الأمر الى غير أهله فى أمة فقد حانت ساعتها وذهبت ريحها ، ولما كانت الرشوة فى أية صورة من صورها وبأى اسم من أسمائها ، خطرا على المجتمع الإسلامى ووبالا على الأمة المحمدية جميعها فقد لعن الله الراشى والمرتشى ، وطردهما من رحمته ، ووكلهما الى نفسيهما ، فقد روى

مكتبتنا العربية

أبو داود والترمذى بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشى والمرتشى » .

أما الراشى ، فإن لم يكن صاحب حق فقد جمع الى جريمة الظلم جريمة التعاون على الإثم والعدوان ، وإن كان صاحب حق ولا يصل الى حقه إلا بالرشوة فقد أعان هذا الظالم وهو المرتشى ، وأفسد خلقه وجعله يستمرئ الرشوة من كل من له عليهم نفوذ أو سلطان . وفى هذا من الفساد ما فيه . وأما المرتشى فإنه يأكل أموال الناس سحتا وينشر بين المجتمع فسادا ويعطل مصالح العامة . هذا . وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لكل موظف من موظفى الدولة ، ومالا يحل من الأموال فى كلمة جامعة ، فقال فيما رواه عنه عبد الله بن برمدة عن أبيه رضى الله عنهما : « من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » والغلول الخيانة فى الأموال العامة ، وقد شدد الله فى أمر الغلول كثيراً ، فقال تعالى « وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وقى الله هذه الأمة داء الرشوة وزكى نفوس بنيها وطهر أخلاقهم حتى يكونوا أهلا لما هيأهم الله له من خلافة فى الأرض .

خفى حنين

كان يزيد بن حاتم الأزدى والى مصر مدحه ربيعة بن الراقى ، واستبطأ عطاءه فقال :

أرانى ولا كفران لله راجعاً ... بخفى حنين من نوال بن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم ، فأمر بإحضاره اليه ، فلما دخل على الأمير سأله هل قال غير هذا البيت ؟ فأقسم له بأنه لم يزد عليه شيئاً . فقال له الأمير : لترجعن بخفى حنين ملئتا مالا ، وعمل بما وعد . فقال فيه ربيعة الراقى :

بكى أهل مصر بالدموع السواجم ... غداة غدا منها الأغر بن حاتم

ومنها :

وشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والأغر بن حاتم

فهمٌ الفتى الأزدى إنفاق ماله ... وهمٌ الفتى القيسى جمع الدراهم

فلا يحسب اتمام أنى هجوته ... ولكننى فضلت أهل المكارم

مكتبتنا العربية

كيف ينهض المسلمون

لفضيلة الأستاذ الشيخ على رفاعى

مفتش الوعظ والارشاد

النهضة كلمة رائعة تحمل كل عناصر الحياة . والنمو . والخلود . ومن عناصرها الحية الخالدة يكتب تاريخ الأمم التى تنتظم نفسها فى أمم التاريخ ! . فما هو إذن نصيب المسلمين من النهضة ، وإلى أى مدى بلغت بهم هممهم فيها ، وما هو حكم التاريخ العادل إذا أراد أن يقول فيهم كلمته .

أعتقد أن الإسلام إنما جاء ليحكم ويسود لأنه دين مشحون ببارود القوة الحافزة الملهبة ، والتى تدفع أتباعه - دائما - إلى الأمام . هذه هى الحقيقة الكبرى التى ضلت بين ركام الأحداث الجسام فى عصور المسلمين المظلمة ، وكادت تغيب فى جماجم الموتى الأولين ! . وإذا كان التاريخ شاهد عدل لا يزيغ رأيه ، ولا يضل حكمه ، فلنسأل التاريخ إذن كيف نهض المسلمون ليجيبنا التاريخ فى غير حذر ولا مواربة ولا مداجاة ، وليفتح أعيننا على القوة الكامنة فى طبيعة الإسلام حتى نعرف فى بساطة ويسر كيف ينهض المسلمون .

يقول التاريخ : أن أول باب يدخل منه الداخل إلى ساحات الإسلام الفساح هو التوحيد .. مبدأ ، وعقيدة ، وخلق . أما أنه مبدأ فذلك ما يشهد به واقع حياة المسلمين الأولين ، ويشهد له القرآن الكريم « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » وهو سر النواة التى أخرجت هذه الدوحة الكريمة المتشابكة لتتفيأ الدنيا ظلالها الوارفة ، وتتنفس فى جوها المعطر الشميم ، وناهيك بدين يقدس معنى وحدة المبدأ بين أتباعه ، فيعلن فى سمو بالغ أن الوحدة إيمان ، والفرقة كفر « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » أى بعد جماعتكم ووحدتكم متفرقين . « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

مكتبتنا العربية

نعم إنه مبدأ كريم أشربته قلوب المؤمنين بهذا الدين ، حتى صرخ فى عروقهم النابضة بالقوة والحياة أن حطموا هذه الفرقة الطاغية المبددة . ثم انفذوا باسم الله إلى أقطار هذه الأرض الباغية ، لتصفوا أقدام الناس على الطريق المستقيم ، فإذا الكلمة واحدة ، والسبيل قاصدة ، والشمل جميع .

وأما أنه عقيدة فهذا هو السمو الذى ساد به المسلمون . ليس فى الأرض آلهة ولا جبابرة ، وليس فى الناس سادة وعبيد .. وإنما هو إله واحد تعنوا له الجباه وتخبت له القلوب ، وتخضع له الرقاب « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » والناس ـ بعد ـ فى عبوديتهم له سواء . فأى دين يغرس فى عقول أتباعه ، وقلوبهم هذه البذرة المباركة النامية ويوجههم إلى (توحيد) عقيدتهم هذا التوجيه السديد ، إنه الإسلام الذى يضع لأتباعه أعظم ما عرفت الأرض من قواعد النهضات .

وأما أنه خلق فذلك لأنه يرسم للسلوك الإنسانى طريقه المعبد بين عقبات المجد الكاذب ، وشعابه الملتوية ، ليترسم المسلمون وحدهم مناهج العزة والكرامة والرجولة التى لا يستعبد بها بشر لبشر مثله (الناس سواسية كأسنان المشط » ، « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

فلا تسل كيف نهض المسلمون . ولكن سل عن سر هذا النهوض .

يجب أن نواجه الحقائق لنكون ـ على الأقل ـ منطقيين مع أنفسنا ! إن هذه الغشاوات المعتمة التى تحجب عن العيون ضوء الإسلام الحنيف ، هى التى هوت بالمسلمين إلى الحضيض ، وكادت تعفى على آثار نهضاتهم التى وقف التاريخ فى محرابها خاشعاً يرتل ألحان العظمة والجلال . وأن هذه الحفائر العميقة التى ملئت بالقذر العفن من واردات الغرب ، ثم غطيت بالقش الرخيص لتكبوا فيها الأقدام ، هى علة ما يشكو منه المسلمون .

والإسلام دين يؤمن بالقوة ، ويحشد أجناده ـ دائما ـ على الثغور « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .

ويقدس أسبابها ووسائلها ، ويصورها فى معارضها الحافلة ، الحاشدة ، ويضفى عليها من المهابة ثوباً فضفاضا فخم الحواشى « والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا » .

مكتبتنا العربية

والإسلام يدعو إلى الحرية ، ويحطم فى عنف وقسوة قيود الذلة والعبودية والاستخذاء ، ويوجه نظر المسلمين دائماً جهة السماء «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .

والإسلام يهتف بالحق أبداً ، ويصوغ أغنيته العذبة من لحنه الأخاذ « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » . « ذلك بأن الله هو الحق وإنما يدعون من دونه الباطل » .

الحق ، القوة ، الحرية . هى تغاريد الحناجر المؤمنة بالعشى والأبكار .

وهى أنشودة الكتائب المجاهدة التى غيرت مجرى التاريخ .

وهى ألحان الفطرة النقية التى لم تعبث بها أيدى الشياطين .

وهى دعائم النهضة الزاكية التى لفتت أنظار الدنيا ، وهزت أرجاء العالم الكبير .

لقد كانت تعاليم الإسلام الخالد هى مبعث نهضة المسلمين بالأمس ، ولن يكون غيرها أبداً مبعث نهضتهم اليوم .. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

رسالة

قدم جرير على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : مالى وللشعر يا جرير إنى لفى شغل عنه . فأجابه : يا أمير المؤمنين إنها رسالة من أهل الحجاز . قال : فهاتها إذن ، فقال :

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى ... أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر

أصابت السنة الشهباء ما ملكت ... يمينه فحناه الجهد والكبر

ومن قطيع الحشا عاشت مخبأة ... ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر

لما اجتلتها صروف الدهر كارهة ... قامت تنادى بأعلى الصوت يا عمر

مكتبتنا العربية

الفقه السياسي عند المسلمين

للدكتور الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

يرى الإسلام أن الأرض لله ، والخلق لله ، فالدولة لذلك هى دولة الله ! فهو وحده سبحانه السيد المالك ، وليس لغيره أن يستعبد الناس ، أو يتعبدهم بشيء ما ، وقد جعل الله لنفسه العزة والسيادة على كل شعب فى أى بقعة من أرضه ثم جعل هذه السيادة للشعب نفسه بعد الله ورسوله ، فالشعب فى كل دولة هو خليفة الله ونائبه فى عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، وهو المسئول عن تصريف أمور الدولة نيابة عن مالكها سبحانه وتعالى ، ولما كان الشعب مجتمعاً لا يمكنه أن يقوم بالتكاليف المنوطة به ، فقد أبيح له أن يختار من يحمل عنه التبعة والمسئولية ، فى القيام بالتكاليف ، وتدبير أمر الجماعة ، وهذا المختار من الشعب هو حاكم الشعب ، ويراد منه ، قيادة المجموعة قيادة خيرة رشيدة تحقق الخير للجميع ، وتكفل لكل فرد أكبر قسط ممكن من حياة حرة كريمة سعيدة .

والحاكم الذى يختاره الشعب لهذه القيادة الرشيدة ، وكيل عن الأمة التى اختارته ، وتختاره الأمة بالبيعة ، وهى تعاقد بين طرفين هما : الأمة والحاكم ، أو بعبارة أدق بين كل فرد مبايع وبين الحاكم . وهذا التعاقد يلزم الحاكم والمبايع بالتزامات محددة ، معروفة ، مفهومة من الطرفين ، يتعهد الحاكم بمقتضاه بالسير فى حكمه على القواعد التى رسمها (القرآن والسنة) وهما دستور المتعاقدين المتفق على احترامه والتزام العمل به ، وهو دستور عام خالد ، ثابت دائم ، ليس لأحد المتعاقدين تصرف فيه بزيادة أو انتقاص ، لأن مشرعه هو السيد المالك العليم الخبير ، بما يصلح دولته ، وما لا يصلح لها ، وتتعهد الأمة (أو المبايع) للحاكم بالطاعة فى كل ما يصدره وفقاً لمبادىء هذا الدستور المحترم من الطرفين ، غير مستبد برأيه . بل عن ملأ وشورى بين المسلمين ، ولما كان كل فرد فى الأمة مسئولا عن الأمة وحكمها ، فإنه يتقدم للمبايعة ويقول : « أبايعك على كتاب الله وسنة

مكتبتنا العربية

رسوله وصالح المؤمنين » وليس لذلك معنى غير أنه يوكله عن نفسه فى القيام بتدبير أمر الدولة الذى هو حق لكل فرد مسئول فيها ، وليس على الموكل « المبايع » سوى الطاعة فى حدود الدستور المتفق عليه ، وإذن فالبيعة هى عقد وكالة بين الأمة وحاكمها المنتخب ، من أفرادها المسئولين عنها ، وظاهر جدا أن عقد الوكالة ليس عقد تمليك للوكيل ، ولا يقتضى تمليكا ، وإنما هو عقد إذن بالتصرف باسم الموكل فى حدود ما رسمه الوكيل ، وأذنه بالتصرف فيه ، ثم هو عقد مؤقت مشروط . فهو خاضع لرقابة الأصيل ، فإن رأى الوكيل ملتزماً للشروط المحددة ورأى أن استمرار العقد فى صالحه ، أبقى الوكيل إن شاء ، فإن رأى الوكيل قد جانب الشرط وخرج من العهدة ، عزله إن شاء إذا لم ينعزل من نفسه ، كذلك لا ينطوى عقد الوكالة على تنازل من الأصيل عن شىء من حرياته أو سلطانه أو حقوقه كلها أو بعضها ، وإلا كان العقد عقد تمليك ، ولهذا اتفق فقهاء الإسلام على أن الحاكم وكيل عن الأمة خاضع لرقابتها ، ولها عليه سلطان التولية والعزل والتوجيه ، ولكل فرد من أفرادها حق أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وهى السلطة الكبرى التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده [١] .

وفى هذا يقول الإمام الكاسانى رحمه الله : « وكل ما يخرج به الوكيل عن الوكالة يخرج به القاضى عن القضاء ، لا يختلفان إلا فى شىء واحد ، وهو أن الموكل إذا مات ، أو خلع ، ينعزل الوكيل ، والخليفة إذا مات أو خلع ، لا تنعزل قضاته وولاته ، ووجه الفرق أن الوكيل يعمل بولاية الموكل ، وفى خالص حقه ، وقد بطلت أهلية الولاية (يعنى بموت الموكل أو خلفه) فينعزل الوكيل ، والقاضى لا يعمل بولاية الخليفة وفى « خالص ! » حقه ، بل بولاية المسلمين ، وفى حقوقهم وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ، لهذا لم تلحقه العهدة كالرسول فى سائر العقود والوكيل فى النكاح ، وإذا كان رسولا كان فعله (أى فعل الخليفة) بمنزلة فعل عامة المسلمين ، وولايتهم بعد موت الخليفة باقية فيبقى القاضى على ولايته ، وهذا

---

[١] الاسلام والنصرانية ص ٦٠ ـ ٦٦

مكتبتنا العربية

بخلاف العزل . فإن الخليفة إذا عزل القاضى أو الوالى ينعزل بعزله ، ولا ينعزل بموته ، لأنه لا ينعزل بعزل الخليفة أيضاً فى الحقيقة بل بعزل العامة ، لما ذكرنا من أن توليته بتولية العامة ، والعامة ولوه الاستبدال دلالة لتعلق مصلحتهم بذلك فكانت ولايته منهم معنى فى العزل أيضاً [١] » .

ومما يقطع بصحة فكرة وكالة الحاكم عن الأمة وخضوعه لرقابتها وسلطانها ، أن جميع الفقهاء ، اعتبروه واحداً من أفراد الأمة فى كل تصرفاته ، وألزموه بمتالفه وجناياته ، فهو يؤخذ بالقصاص إذا قتل عامداً ظالماً ، ويلزم بالأموال التى يتلفها ، وتقطع يده إذا سرق ، ويجلد أو يرجم إذا زنى ، والأمة هى التى تحاسبه وتعاقبه ، يقول الإمام القفال من الشافعية : « إن الخليفة إذا زنى يقيم عليه الحد ، من ولى الحكم عنه . وهو الأمة [٢] » .

ولدينا نصوص كثيرة فى هذا المعنى الجليل ، الذى جاء به الإسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية والتى تشير إليه عبارة « الأمة مصدر السلطات » التى يجب أن تعدل هكذا « الأمة قيمة على الحكم ، ومصدر سلطات الحاكم » .

مما تقدم يرى القارىء أن عبارة « السلطان ظل الله فى أرضه » عبارة لا تستقيم فى ظاهرها مع روح الإسلام ونصوص العلماء ، كما فهم ذلك بعض الناس ، وجعلوا بمقتضاها للحاكم - فى نظر الإسلام ظلماً - حقا مقدساً . وقالوا لهذا : إن نظرية الحكم فى الإسلام تشبه نظريات الحق الملكى المقدس عند الفراعنة والفرس والروم ، مع تعديل يسير اقتضاه تقدم البشرية ، وتطور الزمن .

وفى اعتقادى أن هذه العبارة التى جاءت لأول مرة فى بعض كتب المنصور العباسى ، قد انتقلت إلى العباسيين عن التفكير الفارسى الذى كان يقدس الأكاسرة قديما ، أو عن الحكام الرومانيين فى العصر المسيحى الميروفنجى ، وهى فى الحقيقة تشير إلى النظرية الكنسية التى تزعم أن الله قال للقديس بطرس « إن ما حللته فى الأرض فأنا أحله فى السماء ، وما ربطته فى الأرض فأنا أربطه فى السماء » بمعنى

---

[١] البدائع لأبى بكر الكاسانى الحنفى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ جـ ٧ ص ١٦ .

[٢] مغنى المحتاج على المنهاج للخطيب جـ ٤ ص ١٤٠ وتحفة المحتاج للهيثمى جـ ٩ ص ١١٥ .

مكتبتنا العربية

أن البابا هو ظل الله فى أرضه ، وكل أوامره متمدسة لأنها وحى السماء ، وقد قامت الكنيسة بمساعدة شارلمان على إعلان الدولة الرومانية المقدسة ، بتتويجه ملكا للرومانيين سنة ٨٠٠م ، وأرادت من هذا التتويج أن يكون لها سلطان على الأمبراطور المقدس الذى توجه البابا المقدس الذى له سلطة الحل والربط فى الأرض وفى السماء ، ولا نظن المنصور العباسى على كبر عقله ، وسعة علمه ، وقربه من مصدر النور الهادى . كان يقصد شيئا مما تعنيه نظريات الحق المقدس ، لأن ذلك يناقض مبادىء الإسلام ويجافى النصوص الصحيحة ، فالرسول عليه السلام يعلن أنه : « ليس ملكا ولا جباراً فى الأرض » إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر » وعمر بن الخطاب يخطب فى الناس قائلا : أيها الناس لست ملكا فأستعبدكم بملك أو جبرية ، إنما أنا واحد من الناس ، وإنما مثلى منكم ومن أموالكم كمثل ولى اليتيم منه ومن ماله » يعنى حسن الرعاية والارشاد إلى الخير ، لا سيادة له عليهم كما أن ولى اليتيم لا سيادة له عليه ولا يملك شيئاً من ماله ، فان احتاج أكل بالمعروف من مال اليتيم وكان ذلك كأجر على حسن الرعاية ، وغاية ما هنالك أن الحاكم وكيل عن الأمة النائبة عن الله فى عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، فهو يأمر وينهى بسلطان الأمة الذى هو سلطان الله . وهو مع ذلك خاضع لرقابة الأمة فى كل تصرفاته ، وعلى هذا فلا صلة إطلاقا - بين نظرية الإسلام فى الحكم ، ونظريات الحق المقدس القديمة ولا نظريات الكنيسة المسيحية ، وإذا ثبت أن المنصور العباسى كان يعنى ما يشير إليه ظاهر العبارة ، فالمنصور فرد مسلم غير معصوم ، وليس حجة على الإسلام .

بقى أن نتحدث عما اعتبره الكتاب المحدثون شبها بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، هذه النظريات سواء منها الأغريقى القديم ، أو المسيحى الحديث تقوم على أساس تنازل من الأفراد الذين يؤلفون دولة فى أى مكان . عن بعض سلطاتهم وحرياتهم للحاكم . ليكون له من مجموع هذه « التنازلات » سلطة ممتازة تأمر فتطاع ، وقد رأى الفيلسوف الانجليزى « هوبز » أن هذا التنازل من الأفراد ، تنازل نهائى فى غير مقابل ، وليس لهم حق الرجعة فيه ، فالشخص الذى يملكونه هذه السلطة الممتازة ، هو حاكم دائم مالك لهذه السلطة ، وليس للشعب أن يسأله

مكتبتنا العربية

عن تصرفاته ، وقد استخدم هوبز هذه النظرية لتأييد الملكية المطلقة المستبدة السائدة فى عصره ، وجاء بعده الفيلسوف الانجليزى « لوك » فقال : ان تنازل الأفراد عن بعض حرياتهم وسلطاتهم تنازل حقيقى ، يقتضى أن يكون الحاكم مالكا للسلطة الممتازة ، ولكنهم إنما تنازلوا فى مقابل رعاية الحاكم لمصالحهم ، ومنع تصادم حريات الأفراد ، واستخدم هذه النظرية لتأييد فكرة الملكية الدستورية المستنيرة السائدة فى انجلترا إذ ذاك .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى جاء الفيلسوف الفرنسى « روسو » فنحى بهذه النظرية نحواً جديداً ، فقال : إن تنازل الأفراد ليس تنازلا نهائياً ، وإنما هو تنازل مشروط بأن يكون الحكم لصالحهم ، ولهذا لهم حق الرجعة فى هذا التنازل ، إذا لم يحقق الحكم مصلحة الجماعة ، ومعنى هذا أن الحاكم خاضع لرقابتهم . فاذا انحرف بالحكم عن صالح المحكومين ، فمن حقهم أن يخلعوه .

وقد استخدم روسو . هذه النظرية لتأييد سيطرة الشعوب على الحكومات . فى الوقت الذى كان الشعب الفرنسى يتهيأ فيه للثورة على الملكية المطلقة ، على أن فكرة حق الأمة فى عزل الحاكم المعوج لم تأت صريحة فى نظريات التعاقد كما جاء بها الإسلام . هذا وأنت ترى أن فلاسفة التعاقد قد اتفقوا على أن الأفراد قد تنازلوا عن بعض حرياتهم وسلطاتهم ، فى مقابل أو فى غير مقابل ، تنازلا نهائيا أو غير نهائى ، والذين جنحوا منهم إلى تأييد سلطة الشعب على حكامه اضطروا إلى النص على توقيت مدة الرئيس المنتخب للجمهورية . حتى لا يرى نفسه ملكا ، أو يراه الناس ملكا ، فقرروا انتخاب الرئيس كلما انتهت مدة الرياسة ، وفى هذا ما فيه من إشاعة الاضطراب والقلاقل ، كلما تجدد انتخاب الرئيس . وكثيراً ما تسود الاحن والضغائن وتنقسم الأمة إلى شيع متحاربة . من جراء تنافس المرشحين للرياسة .

وأما نظرية الإسلام . فليس فيها أفراد تنازلوا عن شىء من حرياتهم وسلطاتهم وإنما لدنيا أمة مكلفة وكلت عنها بعض أفرادها لرعاية صوالحها ، وليس فى الوكالة تمليك ولا مظنة تمليك ، والبيعة عقد يقيد الحاكم بدستور خاص ، ويحدد له حدود مهمته ، فإذا التزم شروط العقد فله حق الطاعة على المحكومين ، فإذا جاوز ما عين

مكتبتنا العربية

له وخرج على الشرط ، انعزل من الوكالة وخرج ، من العهدة بنفسه أو بعزل الشعب الذى ولاه ، وفى هذا يقول الصديق رضى الله عنه للناس « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » وأساس هذا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ولا شك أن عدم رعاية مصالح الدين وصوالح الدولة ، أكبر معصية لرب الدولة سبحانه وتعالى ، وبهذه النظرية يتحقق الاستقرار فى الدولة ، ويمكن الحاكم الصالح المصلح من خدمة شعبه ، وتحقيق منهج إصلاحه ، ويضع الحاكم فى مكان الخادم للأمة ، والأمة له بالمرصاد ، تراقبه وتحاسبه ، وتكبح جموحه إن جمح ، وترشده إلى الحق إن مال أو التبس عليه أمره وتعزله إن ظهر غشمه وظلم وفجر ولم يرعو لناصح أو زاجر .

بعد هذا يا أخى القارىء لا أظنك تقول : إن الحكم فى نظر الإسلام كالحكم فى نظريات التعاقد !! فإن كان لنا فى « التعاقد » هوى ، فالتعاقد فى الإسلام تعاقد خاص بالإسلام ، وهو أسمى وأجل من نظريات التعاقد التى عرفتها .

وإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الإسلام هو أول من احترم الأمة ، وجعل لها « شخصية معنوية » وألزمها بالتكاليف العامة ، ووكل إليها القوامة على أمورها ، واعلم أيضاً أن المسلمين هم أول من عرف أن الأمة هى مصدر جميع السلطات ، وأن الحاكم خادم وقائد ورائد ، لا سيد مستبد والناس عبيده ، ولعلك يا قارئى تطلب منى البيان ! وأعدك به فإلى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

(يتبع)

الحكمة

مر عيسى عليه السلام بقوم فقالوا له شراً ، فقال هو خيراً . فقيل له : إنهم يقولون شراً وتقول لهم خيراً ؟ فقال : كل واحد ينفق مما عنده . وقال الشاعر :

وذى رحم قلت أظفار جهله ... يحلى عنه حين ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى ... قطيعتها تلك السفاهة والإثم
فداويته بالحلم والمرء قادر ... على سهمه ما كان فى كفه السهم

مكتبتنا العربية

الحياة الأخرى

عن سيد أمير على *

للأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ فى الآداب

[يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية]
[مرضية . فادخلى فى عبـــادى . وادخلى جنتى]

نظرية الحياة الأخرى — بعد افتراق عنصر الحياة عن الجزء الفانى — نظرية تتقاسمها جماعات الناس عموماً ، وإن كانت تتميز عندهم الواحدة عن الأخرى ، حتى إنها لتنتهى بنا إلى الاعتقاد بأنها يجب أن تكون من الأوليات فى مقومات وجودنا . ولو بحثنا الحقائق التى تتصل بطفولة الأجناس والقبائل بحثاً وافياً ، لعرفنا أن فكرة « الحياة الأخرى » هى نتيجة طبيعية لتقدم العقل البشرى .

وليس للإنسان البدائى أية فكرة عن حياة منفصلة ، ومختلفة عن حياته تلك التى يحياها على الأرض ؛ فالموت عنده نهاية الوجود . ثم يجتاز الإنسان هـذه المرحلة ، إلى مرحلة ثانية تكون له فيها آمال ورغبات ، لم تعد تنبنى بعد على الموت الأرضى ، بل إنه ليتوقع « وجوداً آخر » بعد أن ينتهى وجوده الحاضر . ولكنه فى هذه المرحلة لا يتعدى فهمه الخلود ، مجرى الحياة اليومية . فالحياة بعد الموت ، إنما هى مجرد استمرار للحياة على الأرض . ويبدو أن هذه الفكرة عن استمرار الحياة فيما وراء القبر ، قد نتجت عن شوق لا شعورى للروح الإنسانى ، يرغب فى أن ينتهى الفراق بين الأصدقاء — وهو فراق مر للإنسان البدائى والمتمدن على السواء — إلى لقاء .

وينتقل الإنسان — بسرعة — إلى مرحلة ثالثة ، فيعتقد أن السعادة الحالية

(*) Sayed Ameer Ali : Tth Spirit of Islam - London; 1946

مكتبتنا العربية

والشقاء الموجود ، ليسا ، ولا يمكن أن يكونا هما كل الوجود ، أو كل النهاية لوجوده ، بل إنه ستوجد حياة أخرى ، أو أنه توجد حياة أخرى بعد الموت ، يكون فيها سعيداً أو شقياً ، بالنظر إلى ما يستحقه .

ونجد أنفسنا ههنا أمام : مبدأ وقانون

ولم يتقدم العقل الإنسانى فى بحثه فى نظرية الحياة الأخرى ، ولم يستكشف فيلسوف الشك المطلق شيئاً ، أو يحقق وضعاً جديداً ، بل إنه سار الهوينا متأثراً خطى سلفه البدائى ، الذى كان مجال تفكيره متأثراً بحياته فحسب .

ومن الحقائق الثابتة أنا إذا نظرنا إلى كل هذه النظريات التى تمثل المراحل المختلفة من وجهة نظر موضوعية ، لرأيناها قد وجدت متعاصرة ، لا عند الأمم المختلفة فقط ، وإنما عند الأمة الواحدة ، على صور مختلفة ، تبعاً للتقدم الفردى .

* * *

ويقال : إن المصريين كانوا أول من عرف نظرية الحياة الثانية ، أو أنهم هم ـ على الأقل ـ أول من بنى مبادىء السلوك الإنسانى على مثل هذه النظرية . فقد ربطوا نظرية التناسخ بفكرة الثواب والعقاب المستقبلة : ينزل الإنسان إلى القبر ليقوم ثانية ، وبعد بعثه يدخل حياة جديدة ، فى صحبة الشمس ، عنصر الوجود ، العلة الموجودة بذاتها لكل شىء . واعتبر روح الإنسان خالداً مثل الشمس يقوم بنفس انتقالاتها Piligrimages . نزلت كل الأرواح إلى العالم الأدنى ، ولكنها ليست جميعاً مؤكدة البعث . وكان « أوزيريس » ومستشاروه الإثنان والأربعون يحاكمون الموتى ، والحرمان [من البعث] نصيب من يدان . أما من خفت موازينه فكان ينقى من آثام الحياة ، ويدخل « السعادة الكاملة » ، ويطعم ـ كرفاق « أوزيريس » ـ بأشهى طعام .

ومن الطبيعى أن نتوقع أن إقامة الإسرائيليين الطويلة فى مصر قد أوجدت بينهم فهما لفكرة الحياة الثانية وما يتبعها من ثواب أو عقاب . ولكن « الموسوية » الخالصة [أو التعاليم التى تحمل هذا الاسم] لا تعترف بحالة وجود تختلف عن حالة الوجود الحاضرة . والمحور الذى يدور حوله كل نظام التشريع الموسوى يقوم على أساس ثواب وعقاب أرضى محسوس . أما نظرية البعث ، وما نبع عنها

مكتبتنا العربية

من أفكار ظهرت فيما بعد فى اليهودية ـ خاصة فى كتابات «دانيال وحزقيال» [١] ـ فقد كانت ثمرة لغرس أجنبي مستمد من أصول «زردشتية» حتى إن وصف الإقامة العامة للكائنات الراحلة، سواء العادلة منها والظالمة، التى تظهر فى الكتابات المتقدمة بعض الشيء، لا يبدو أنها من أصل عبرى صحيح. فلا يستطيع الإنسان فيها أن يحمد ربه أو أن يذكر حبه ورحمته. إنها مملكة ظلال، محاولة يهودية لمعارضة العالم الوثنى غير المرئى؛ والموتى [فى هذه المملكة] لا يعلمون شيئا عمن كانوا أحبابهم على الأرض، فلا ينوحون إلا على أحوالهم.

ولم تلبث اليهودية، حتى ملئت ـ فيما بعد ـ بإيمان قوى بالحياة الأخرى، فقد غنيت آثارها بوصف منازل المؤمنين، أو ما يلقاه المشركون من عذاب. وأثرت الزردشتية على الجنس العبرى تأثيرا مزدوجا، فلم تكن تزيد عنها فهما أكثر نقاء وروحية فحسب، ولكننا نجد أن المجوسية الزردشتية فيما بعد، ـ وهى ثمرة كالدانية ـ قد صبغت العقائد الربانية [٢] بآراء مادية عن الثواب والعقاب فى الحياة الأخرى. وعلى أية حال فإن شعوب الشرق الآرية هى التى عرفت نظرية الحياة الأخرى بعد الموت. ففى الفرع الأول من العائلة الآرية اتخذت النظرية إما شكل التناسخ الأبدى، دائرة لا تنتهى من الميلاد والموت، أو شكل فناء كلى بعد فترة اختبار طويلة فى اللانهائية المطلقة، أو شكل لا نهائية فى زمن لا قياس له، أو لا شيء[٣] واتخذت النظرية عند الفرع الآخر من العائلة الآرية شكل سلم متدرج للثواب والعقاب، بالمعنى الذى يفهم به الآن المسلم أو المسيحى قيمة الإنسانية.

هل كان المجوس الزردشتيون يعتقدون من البدء فى البعث الجسمانى؟ هذه مسألة اختلف فيها العلماء، فيرى دولنجر Dollinger وبيرنوف Burnouf أن هذه النظرية لم تكن زردشتية حقيقة، وأنها ظهرت متأخرة، إن لم تكن مستمدة من العبريين [٢] ومهما كان الأمر فى هذه المسألة، فإن الفرس، فى زمن النبى

---

[١] نبيان من أنبياء بنى اسرائيل الأربعة العظام، عاشا فى القرنين السابع والسادس ق. م.

[٢] الربانيون هم كهنة اليهود وعلماؤهم.

[٣] صبغ البراهمة عذاب النار ومسرات النعيم صبغة خيالية حية. وعلى الباحث العربى أن يرجع إلى النظريات البوذية عند الشهرستانى.

[٢] يرى آلجر Alger أن الزردشتيين الأولين كانوا يؤمنون بالبعث الجسمانى.

مكتبتنا العربية

العربى صلى الله عليه وسلم كانت لديهم نظرية قوية متقدمة عن الحياة الأخرى . وتبين بقايا الزند أفستا التى وصلت إلينا ، بوضوح ، الاعتقاد بثواب وعقاب مستقبلين . وترى زردشتية فنديداد وبوندهيش Vendidad & Bundehesh ـ زيادة على اعتقادات الأفستا ـ أنه بعد موت الإنسان تتملك الشياطين جسده ، ولكنه فى اليوم الثالث ، يرجع اليه الشعور . ولا تستطيع الأرواح التى استسلمت ـ فى الحياة ـ لاغراء الشيطان ، أن تمر على قنطرة شينفاد Chinevad المخيفة ، وهى القنطرة التى يجب أن تمر عليها فى اليوم التالى لليلة الوفاة الثالثة . أما الأرواح الطيبة فتنجح فى المرور ، يسدد خطاها « يا زاتاس Yazatas » [وهو فى الفارسية الحديثة « إزاد Izad »] ، ثم تدخل جنات النعيم حيث تصحب « أورمزد » وصحبه من « الأمشاسباند Amshaspand » فى مقرهم حيث يجلسون على عروش من ذهب ، ينعمون برفقة جنيات حسان Hoorân-i-Behisht ، وبجميع أنواع المسرات . وتسقط الأرواح الشريرة من فوق القنطرة ، أو تجر إلى خليج « دوزاخ » حيث يعذبها « دايفاس Daevsa » ويحدد « أورمزد » مدة العقوبة ، كما أن بعض الأرواح قد يخلصها صلاة ودعاء أصدقائها . ويظهر قبيل نهاية العالم ، نبى يخلص العالم من الجور والشر ، ويستمر حكمه السعيد ألف عام وهى مملكة « أورمزد » السماوية [1] . وبعد هـذا يبعث العالم أجمع ، ويتقابل الأهل والأصدقاء ، وبعد أن ينتهى سرور التعارف ، ينفصل الطيبون عن الأشرار ، ويكون عذاب غير الطيبين عظيما . ويذرع « أهريمـان » قنطرة « شينفاد » جيئة وذهابا ، وهو يقاسى العـذاب الأكبر ، ثم يهوى على الأرض مذنب ملتهب يحرقها ، فتنصهر الجبال وتنساب كالمعادن الذائبة فتغمر الجنس البشرى كله ـ طيبه وخبيثه ـ ليخرج الناس بعدئذ جميعا من هذا الطوفان مطهرين . وبهـذا يمحى الشر ، ويعيش الناس جميعا فى سرور ولذة لا يعادلها سرور ولذة .

هذه هى خلاصة دين قد أثر على المعتقدات السامية إلى درجة كبيرة .

****

وكان اليهود قد فقدوا استقلالهم إلى الأبد . واحتل عرش داود مدع بائس ،

---

[1] يسمى الشهرستانى هذا النبى « أوشيزربيكا » [ط كيورتن ص ١٨٨] وترى علماء الغرب أن اسمه « سوسيوش Sosiesch » يسبقه بيان آخران هما « أو شيدر باى Oscheder Bami » ، وأوشيدر ماه ، ويسمى « دوساس » هذا النبى « باشوتان Pashoutan » .

مكتبتنا العربية

وتمكنت قوة أعظم من قوة السلوقيين [١] أن تذكى فيهم روح الإذعان ، ومن هنا نشأ بين اليهود ـ مثلهم مثل أى أمة يتملكها حب عنيف للوطن والعقيدة والفردية ـ أمل قوى بأن يسترد « مبعوث سماوى » ـ مثل جيدون أو مكابيوس [٢] ـ مجدهم الأول ، ويمكنهم من وضع اقدامهم فوق أعناق مضطهديهم الكثيرين [٣] ، واتخذ ظهور « المسيح » عند الوطنيين منهم صورة حية ، وتركزت أناشيد اليهود وأغانيهم حول أمل واحد عظيم ، هو : استرجاع مملكة اسرائيل ، ولكن الإيمان بظهور « المسيح » كان إيمانا خافتاً غير متميز ، أو كان مجرد صدى لإيمان العوام بينهم ، وذلك بسبب الآثار المجوسية الزردشتية والكالدانية فى الشرق ، ومدارس الفلسفة الإغريقية فى الغرب .

أما يهود فلسطين ، فقد استخلصوا من عدة عناصر صورة فخمة ، وإن كانت مضطربة ، لظهور المسيح ، فتعود الأشياء جميعاً ، ويبعث الموتى ، ويحكم المسيح الأرض ، وهذه جميعاً حوادث إما أن تحدث معاً ، أو تترادف مسرعة ، الواحدة إثر الأخرى ، ويأتى المسيح من نسل داود ، فيجمع شمل القبائل المتفرقة شيعاً ، ويطرد ويهلك أعداءهم ، ثم يبعث الموتى ، ولكن هذا كله يحدث لمصلحة الجنس اليهودى فحسب [٤] .

ووسط كل هذا الحماس ، وهذه « الرؤى » الغامضة ، كانت الآمال فى الحياة الباقية ، والجنة المقبلة مختلطة متداخلة ، وكان اليأس والانتظار ، وهما حدان متطرفان ، يعملان دائماً على تهيئة عقول الشعب ، فأخذ قسم منه ينتظر مملكة غير أرضية ، يسود فيها الأمن والقانون تحت سلطان من لدن الله ، وهى محاولة للهروب من قسوة حكم الأعداء : أما القسم الآخر فأخذ يتمنى نفس المملكة الإلهية ، وإنما على دماء الأعداء والكفرة !

هذه فكرة الحياة الأخرى عند طائفة من الشعوب ، وبقى أن نتحدث عنها عند المسيحيين ثم المسلمين ، فإلى العدد القادم . [يتبع]

---

[١] أسرة حاكمة ، أسسها سلوقس الأول فى سوريا ، حكمت بين ٣١٢ ، ٦٤ ق . م .

[٢] مكابيوس : اسم لسبعة إخوة استشهدوا وأمهم تحت حكم أنتيوكوس أبيفان سنة ١٦٨ ق . م .

[٣] يرى آلجر أنه ليس ضروريا أن يعتقد اليهود بالتناسخ لأنهم يفرطون فى ظهور « أليشع » أو غيره من أنبيائهم ، وأن ذلك لا يتعدى الأمانى الوطنية .

[٤] الشبه قوى بين اعتقاد اليهود والزردشتيين فى ظهور مخلص ، ويرى أن ذلك جاء نتيجة للاضطهاد الذى صادفه كل من الشعبين تحت حكم أجنبى .

مكتبتنا العربية

فى مجلس القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

تعود كثير من المستمعين إلى آى الذكر الحكيم فى حفلات المآتم والذكرى وبعض المناسبات ـ أن يجلس كل منهم إلى زميله يتحدث معه جهرة ، أو بين السر والجهر ، فى شئون متنوعة ، وقد يتطرق بهما الحديث إلى تناول آخرين بالقدح وتعداد المثالب ، وقد يبلغ بهما التعمق فيه إلى أمور أقل ما يقال فى الحديث عنها إن إثارتها عمل يجافى الذوق ، ولا يساوق الطبع ، ولا يتفق وما لمجلس القرآن من مهابة وكرامة ، وتوقير وتبجيل ، ورفعة وسمو .

وقد انتقلت هذه العدوى إلى المساجد ، إذ نرى فريقا كبيراً من المصلين ، إذا ما سمعوا قارئا ، يجزمون أمرهم باتفاق ، أو على سبيل المصادفة على أن يوجهوا إليه تحية . ليست طيبة ولا مباركة عند كل وقف او قبله بأصوات صاخبة مدوية ، مدفوعين إلى ذلك بدافع التشجيع له ، أو التعصب لفنه ، لما بينهم من روابط وصلات ، على أن من القراء من يتخذ له بطانة تلازمه فى حله وترحاله ، تشيد بذكره ، وتنتزع الإعجاب والاستحسان من سامعيه ، حتى يعلو ذكره ، ويطير صيته ، وينبه شأنه .

وتلك حالة ، كيفما كان الباعث عليها ـ تدعو إلى الأسى والألم ، ولا تتفق مع ما يجب لهذه المجالس من قدسية وجلال ، ليتوفر للجالس فيها ما يطلب منه ، من تفكير واعتبار ، وتدبر وإمعان فى أسلوب القرآن ، للوقوف على ما فيه من روعة وجزالة وقوة ورصانة ، وما يفصح عنه ، من حكمة وعظة ، وترغيب وترهيب ، ووعد ووعيد ، ودعوة حازمة إلى الطريق القويم ، وتوجيه حكيم إلى الصراط المستقيم .

وإن ما تقع عليه نواظرنا الآن فى المساجد وغيرها ، وتنقله إلينا الاذاعة ، ويسمعه العالم الإسلامى والعربى أيام الجمع من تهويش يثقل على السمع ، وتتبرم

مكتبتنا العربية

به الذاكرة التى تود أن تعى ، وتضيق له النفس التى تبغى التدبر والتأمل ، هو حرام يأثم مقترفه ، والداعى إليه ، والمحبذ له ، لأنه فضلا عما فيه من مجافاة للذوق ، فيه مخالفة للنص الصريح ، فى قوله تعالى « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » وللعلماء فى المراد من هذه الآية الكريمة أقوال أصحها قول الحسن وأهل الظاهر .

أن فحوى هذه الآية على العموم فى أى وقت وفى أى موضع ومن أى قارىء قرىء القرآن ، يجب على كل أحد الاستماع والسكوت ، لأن قوله فاستمعوا وأنصتوا أمر ، وظاهر الأمر الوجوب ، فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين ، والمراد من الاستماع الإصغاء ، والمقصود من الإنصات السكوت للاستماع ، بحيث يحيط السامع بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل ، كما قال تعالى لموسى عليه السلام « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .

وقد ذهب بعض العلماء إلى عدم الاكتفاء من سامع القرآن بالسكوت والإصغاء ، بل طلب منه الإجابة والقبول كما قال الزجاج ، ورأى أن هذا أوفق لتأليف النظم الكريم سابقا ولاحقا ، وأجمع للمعانى والأقوال ، فإنه تعالى لما ذكر قوله « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » تعريضاً بأن المشركين إنما استهزءوا بالقرآن ونبذوه وراءهم ظهريا ، لأنهم فقدوا البصائر وعدموا الهداية والرحمة وأن حالهم على خلاف المؤمنين ، لهذا ، أمر المؤمنين بما هو أزيد من مجرد السماع ، وهو قبوله ، والعمل بما فيه والتمسك به بألا يجاوزوه ، فيما يأتون وما يدعون ، وفى ذلك يقول تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال « أفلا يتدبرون القرآن » ، وصفة ذلك أن يشغل المؤمن قلبه بالتفكير والنظر إلى الأوامر والنواهى ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى ، اعتذر واستغفر ، وإذا مر بآية رحمة ، استبشر وسأل ، أو عذاب أشفق وتعوذ ، أو دعاء تضرع وطلب .

على أن رفع الصوت فى المساجد بالعلم والذكر وفى غير حضرة القرآن كرهه مالك وجماعة من العلماء فكيف بهذه الأصوات ترتفع قوية مجلجلة بغير العلم

مكتبتنا العربية

والذكر وفى حضرة القرآن . إنه ـ لا شك ـ ذنب عظيم وإثم كبير . يعيد الى الذاكرة ما كان يقترفه أولئك الذين استهانوا بحرمة البيت حينما تقربوا إليه بالمكاء والتصدية . وفى ذلك يقول تعالى « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » أى صفيرا وتصفيقا .

وفى كنف هذه الآداب حبب الدين الحنيف للسامع أن يطلب ذا الصوت الندى الجميل . الذى يرسل الى الآذان لحنا عذبا جميلا . يلمس الإحساس فيملأ النفس نشوة وارتياحا . والقلب إيمانا ويقينا ، وقد أخرج البزار وغيره « حسن الصوت زينة القرآن » وأيضا حمد من القارىء إن لم يكن حسن الصوت أن يحسنه ما استطاع الى ذلك سبيلا بحيث لا يخرج الى حد التمطيط الذى يتولد منه عن الفتحة ألف والضمة واو . والكسرة ياء . أو يدغم فى غير مواضع الإدغام . فإن وصل به التحسين الى هذا الحد ، كانت القراءة حراما ، يفسق بها القارىء ، ويأثم المستمع لأنه عدل بالقرآن عن نهجه القويم ـ كما رغب إليه أن يضع نصب عينيه ، الحفاظ الشديد ، والعناية التامة بالكتاب العزيز . فيحافظ على سلامة لفظه ويرعى ترتيب آيه ، وأن يجلس إليه خاشعا ، يزينه الوقار ، ويحوطه الحياء ، متطهرا متجملا ، وأن يحذر قطع القراءة بمكالمة أحد ، لأن كلام الله لا ينبغى أن يؤثر عليه كلام غيره ، وقد كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه ، وأن يأخذ نفسه على ترك الضحك والعبث والنظر الى ما يلهى .

هذه بعض الآداب التى يجب أن تتوفر لمجالس القرآن ، دستور الله القويم ، ومعجزة رسوله الخالدة ، ونهجه المشرق الواضح ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وفق الله المسلمين الى رعاية قدره ، وهداهم الى الخير ، وجنبهم مواطن الزلل . إنه سميع مجيب ؟

مكتبتنا العربية

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

فى إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

قدمنا طرفاً من آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول الأعظم ، فى القرآن الكريم ، وبلاغته ، وقضية إعجازه ، وعجزهم عن الوقوف أمام تحديه ، وإقرارهم بالعجز على أنفسهم .

ونتابع اليوم بقية هذا البحث الموجز الدقيق :

كان مسيلمة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة ، ذكر طرفا منها الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » . وهى معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن فى سموه وجلال إعجازه بأى حال ؛ وقد أصيب مسيلمة بالخزى والذل والهوان أمام نفسه وعند الناس .

ويقول صاحب الشفاء : وروى أن ابن المقفع طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه . فمر بصبي يقرأ : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، فرجع ، فمحى ما عمل ، وقال : أشهد أن هـذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ؛ وكان من أفصح أهل وقته ... وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس فى زمنه ، فحكى أنه رام شيئا من هـذا ، فنظر فى سورة الإخلاص ، ليحذو على مثالها ، وينسج بزعمه على منوالها . قال : فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى على التوبة والإنابة [١] .

ويتهمون المتنبي والمعرى وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهـذا لم يصح عن أحد منهم .

---

[١] ص ٢٣٢ ج ١ الشفاء للقاضى عياض طبعة ١٣١٢ هـ .

مكتبتنا العربية

وما روى من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق على وضعه فى كفة واحدة مع القرآن الكريم .

ويقول الدكتور طه حسين باشا : نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلدا ، ولم يجد له تلميذا . هو واحد فى بابه ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه [١] .

وسنعود إلى حديث المعارضة فى بحث مستقل إن شاء الله .

أمية بن أبى الصلت يعارض القرآن :

ويقولون إن أمية قد وقعت منه فى شعره عدة معارضات للقرآن الكريم . وحاشا لله أن يوزن شعر أمية الدينى الذى نظمه بعد بعثة الرسول ببلاغة القرآن الكريم .

ولقد نظم أمية قصصا دينية كثيرة ، كقصة مريم ، وقصة موسى ، وقصة ابراهيم ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز ، وذلك السحر القرآنى العظيم ؟ والكونيات فى شعر أمية ، والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأنبياء ، كل ذلك لا يقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الثرى كما يقولون ؟ .

وفى شعر أمية يبدو تأثره الواضح أحيانا ببلاغة القرآن ومعانيه وأساليبه ، كما تجده فى هذه الأبيات :

عند ذى العرش يعرضون عليه ... يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم ... إنه كان وعده مأتيا
يوم نأتيه مثل ما قال فرداً ... لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو ... أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا ختمته وارد النا ... ر كتابا ختمته مقضيا

الشعراء تبهرهم بلاغة القرآن فلا ينطقون :

وأنتم تعلمون أن الشعراء فى أول عهد النبوة كانوا طوائف ثلاثا :
فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حرب ، ومنهم : عبد الله بن

---

[١] ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه .

مكتبتنا العربية

الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب ، وهؤلاء جميعا أسلموا بعد حين وبعد أن بهرتهم بلاغة القرآن .

وطائفة أخرى كانت مع الرسول وأصحابه ، تدافع عن الدعوة والرسالة : كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وهؤلاء إعجابهم ببلاغة القرآن وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش فى نجد بعيداً عن مكة والمدينة ومواطن نزول الوحى . ومن هؤلاء : الحطيئة ، وكعب بن زهير وغيرهما . وقد ظل شعرهم جاهلياً حتى أسلموا وسمعوا القرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .

وأنتم تعلمون قوة شعر حسان فى الجاهلية ولينه فى الإسلام ، انبهارا بجلال القرآن وروعته . وتعلمون شموخ شعر أمية بن أبى الصلت فى الجاهلية واستخذاءه فى الإسلام ، عجزا أمام هذا السحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ، والإعجاز العجيب

ويروون أن لبيدا لم يقل شعراً فى الإسلام إلا بيتاً واحداً :

ما عاتب المـــرء الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصـــالح

وقيل قوله :

الحمـــد لله إذ لم يأتنى أجلى ... حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وقال له عمر : أنشدنى من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمنى الله سورة البقرة ، فزاد عمر فى عطائه[1] .

ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل لبيداً والأغلب ما أحدثا من الشعر فى الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيـــدا ؟ ... فقـــد سألت هيناً موجودا

وقال لبيد : قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر فى عطائه[2] .

بلغاء العرب يتأثرون ببلاغة القرآن :

---

[١] ص ٨٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

[٢] طبقات الشعراء لابن سلام .

مكتبتنا العربية

وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب والبلغاء فى عصر الرسول وبعده ؛ ويقول ابن خلدون فى مقدمته فى بيان السبب فى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية ، ومنثورهم ومنظومهم : السبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث ، والذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ، لكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ؛ فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا ، من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفاً ؛ بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة [1].

وقد ظل تأثر الأدب العربى واللغة بالقرآن الكريم واضحاً جلياً فى كل عصر ؛ من عهد النبوة حتى اليوم .

فهل بعد ذلك كله نحتاج إلى دليل على الإعجاز ، وإقرار العرب بعجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافهم بقصور ملكاتهم ومواهبهم عن معارضته ؟ اللهم لا .

وما أصدق ما يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبا . فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . ولا يخلقه طول الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل . هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين » .

وفى الحديث : قال الله تعالى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه : إنى منزل عليك توراة حديثة ؛ تفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا . فيها ينابيع العلم ، وفهم الحكمة ، وربيع القلوب ».

---

[1] ص ٥٨٠ مقدمة ابن خلدون .

مكتبتنا العربية

الإسلام الحق

بقلم الأستاذ الشيخ عبد الحليم محمود عبد الرازق

من علماء الأزهر

الإسلام دين يسمو بالروح المتمسكة به إلى مدارج السمو والارتقاء. ثم هو يعالج كل مشكلات الحياة أنجع العلاج، فإن لم تكن هناك مشكلات فهو يرسم للإنسانية أسلم خطة تسعدها فى الدنيا والآخرة، بل وينتظم كل سبب ينعطف بالناس نحو حياتهم أو مماتهم... هكذا جاء محمد صلوات الله عليه بالإسلام من عند ربه.

فماذا يا ترى كان شأن الإسلام بين أهله بعد محمد صلى الله عليه وسلم؟ ذلك ما نرمى إليه من كلمتنا هذه.

سوف نتحدث عن إسلام جديد إذن، ولا نعنى به إسلاما غير ما جاء به محمد صلوات الله عليه، ولكن نعنى أن كثيراً من المسلمين فى مختلف العصور قد خلعوا على الإسلام نعوتا وأوصافا من عند أنفسهم، وزادوا عليه أو انتقصوا منه بالقدر الذى يرضى أهواءهم. فمن ثم بدا لهم أن حدود الإسلام كما رسموا، وأن حقائقه كما فهموا. ساعدهم على ذلك مرونة الإسلام وسعته، ومجاراته لحاجات الحياة جميعها - على أنه للحكمة السامية كان فى الإسلام ذلك - لا للشطط والتأويل.

ولهذا اختلف المسلمون فى معنى الإسلام أكبر اختلاف، وانطبعت فى نفوس الناس للإسلام صور غاية فى التباين والتمايز، كلها إما قريب من تعاليمه أو بعيد عنها. وبعضها منطبق على الإسلام الحق الذى جاء به محمد صلوات الله عليه وذلك فيما نرى أقل من القليل.

رأت جماعة من المسلمين أن الإسلام ليس شيئاً إلا أن يكون عبادة ظاهرة، لا هم لهذه الجماعة إلا أن ترى هذه العبادة مؤداة ليكون المسلم قد قام بواجبه نحو الناس، ويكون الناس بهذا قد وصلوا إلى لب الإسلام وحبة فؤاده. ولعل هذا رأى عامة المسلمين اليوم.

وجماعة أخرى رأت أن الإسلام ما هو إلا خلق فاضل، وفيضان من الروحانية

مكتبتنا العربية

وغذاء دسم من الفلسفة للعقل ، ومانع قاهر جبار ينأى بالروح عن طغيان المادة وظلمها وجبروتها ومجافاتها لحقائق الأشياء .

وجماعة ثالثة ترى الإسلام دينا ينبغى أن نعجب به ونشيد بذكره ونسبح بحمده كلما ذكر شيء عن الإصلاح وطرقه لأن الإسلام فيه عند هذه الجماعة من المعانى الحيوية العملية ما يسعد المجتمع ويسمو به حتى لا مطمع فى مزيد وأكثر هذه الجماعة يقف عند ذلك فقط لا يتجاوزه إلى ما طلب الإسلام وأكد فى طلبه من مراعاة حقوق الله وحقوق العباد .

وجماعة ترى الإسلام نوعا من الديانات التى خلفها الآباء للأبناء فكانت فى عداد ما ورثوا وضمن ما يجب عليهم أن يقلدوا فيه آباءهم وأجدادهم ، فلا غناء فى الإسلام عند هؤلاء ، ولا نهضة للمجتمع عن طريقه . فهذه الجماعة متبرمة بالإسلام أشد ما يكون التبرم ، ترى فى التمسك به حبالا متينة تربطها بالرجعية والجمود - وهذه الطائفة جلها ممن تثقفوا ثقافة أجنبية بعدت بهم عن الفهم الصحيح للإسلام فكأنهم لم يعرفوا عنه شيئا أصلا أو عرفوا عنه ما غمره المسخ والتشويه والبهتان .

تلك صور متعددة لشيء واحد ، وأفهام مختلفة لمفهوم واحد . أما السبب فى ذلك الاختلاف والتباين ، فهو ما ألمعنا إليه من جرى الناس وراء شهواتهم ومن سوء استغلالهم لمرونة الإسلام الحنيف . بل من عدم إمعانهم فى تعرف أسراره والبحث عن كوامنه .

وبعد : فإسلام اليوم الجديد الذى يجب أن نتمسك به حتى النهاية هو ما جاء به محمد صلوات الله عليه من عند ربه ولم يحرفه المحرفون ولم يتأول فيه المتأولون هو الكتاب الكريم : « مافرطنا فى الكتاب من شيء » والسنة المطهرة : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » .

فالإسلام إذن فى حقيقته التى تؤلم الكثيرين من عباد الشهوات هو عقيدة وعبادة وقومية ووطن ، ودين ودولة ، وروحانية وعمل ، حتى إن القرآن الكريم ليعتبر هذا من لب الإسلام وصميمه حين يوصى بالإحسان فيه فيقول « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » والأدلة بعد ذلك والبراهين لا تدع مجالا لمحرف أو تعطى سانحة لمتأول فالآيات الآتية ناطقة أفصح ما يكون النطق ودالة أصدق ما يكون التدليل على حقيقة الإسلام التى قدمنا : فى العبادة والعقيدة يقول تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله

مكتبتنا العربية

مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » وفى السياسة والقضاء والحكم بين الناس يقول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » وفى المعاملات يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم » .

وفى الحرب يقول : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهيناً » .

إلى كثير من الآيات التى تتناول كل مقومات الحياة قاصيها ودانيها .

هكذا يجب أن نفهم أن الإسلام دين ينتظم شئون الحياة جميعها لكل عصر ولكل جنس ، وإن لم نفهم فإن العاقبة جد وخيمة ، وإنها لتسير بنا إلى حيث نهلك ونذل ونخزى أكثر مما نحن فيه ، ونكون حينئذ والعياذ بالله كما قال تعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » ونعوذ بالله من أن يحل بنا عذابه أو خزيه ونعوذ به من أن نظل هكذا نتخبط لا ندرى من أمرنا أين رشده .

مكتبتنا العربية

الإسلام والاشتراكية

لحضرة الاستاذ سعيد زايد

مقدمة :

الاشتراكية مذهب اقتصادى حديث يبغى المساواة بين الناس فى الناحيتين المادية والأدبية ، وكأى مذهب حديث يظهر فى الغرب انبرى له المسلمون بالدراسة والتحليل ، لمعرفة مدى اتفاقه مع دينهم أو اختلافه معه ، ولقد ظهر — مع الفخر — أن الإسلام قد طبق نظما لا يصح لنا أن نسميها اشتراكية إلا بالتجوز . فهى تفوق الاشتراكية فى عدلها ومساواتها ومراعاتها للناحية الإسلامية .

ولقد عثرنا يوم أن كنا مهتمين بدراسة هذا الموضوع على كتاب وضعه أستاذ هندى [1] باللغة الإنجليزية بعنوان « الإسلام والاشتراكية » قدم له بمقدمة طويلة ، فصل فيها منهج الإسلام فى السياسة والدولة . ولقد رأينا أن ننقل لقراء العربية تلك المقدمة الى لغة الضاد ، علها تلفت الأنظار الى ما فى الإسلام من إحاطة بدقائق النفس البشرية ومعاملة أفراد البشر معاملة كريمة تليق بآدميتهم .

قال الأستاذ مشير : اعتذر الى قرائى عن عرض هذا الموضوع الذى يبرز كل يوم عرضا سريعا ، وبالرغم من أن التأليف الأوربى فى موضوع الاشتراكية ليس قليلا بأى حال ، فإن القارىء العادى لا يألفه . ولا أعلم بوجود كتاب قد بحث هذا الموضوع فى لغة شرقية [2] كما أنى لا أعتمد كثيراً على التأليف الغربى القيم فى هذا الصدد نظرا لأن آرائى حول الاشتراكية تختلف الى حد كبير عن آراء الكتاب الأوربيين . ولسوء الحظ ليس من اليسير القيام ببحث علمى فى الهند نظرا لقلة المكتبات القيمة وندرتها ، اللهم إلا كتب قليلة مثل التى أعارنى إياها صديقى

---

(١) الأستاذ مشير حسين كيدوى

S. Mushir Hosein Kidwai : Islam and Socialism.

(٢) يجب أن نلاحظ أن المؤلف وضع كتابه سنة ١٩١٢ م

مكتبتنا العربية

مولوى نظام الدين صاحب ، والمستر ر . س . هوبرت وتلك المساعدة التى أسداها الى صديق الحميم قوار مهراجا ، وأخى الفاضل الشيخ مقبول حسين صاحب ، وإذن فكان على أن أعود الى المصادر الضئيلة التى بين يدى ، ذلك هو السبب الرئيسى فى أن هذا الكتاب الصغير ليس كاملا على النحو الذى أردت .

وبعد أن بين المؤلف الصعوبات التى اعترضته فى تأليف الكتاب ونشره ، أشار إلى المصادر الإسلامية التى استمد منها البحث ، وأولها القرآن الكريم نفسه ، قال : لأننى على يقين من مدى جهل أوربا بفضائل الإسلام ، ورأيت أنى باستعراض أصول الإسلام ربما أنجح فى إقناع قرائى بأن فكرة الاشتراكية فى الإسلام ليس عمرها أقل من ثلاثة عشر قرناً ، وأنها لا يمكن أن تعزى إلى التأثير الأوربى ، فلست أقصد بهذا إلى القول بأن الدعاية الاشتراكية المنظمة كما تعرف اليوم ، كانت توجد حينئذ بل أريد أن أؤكد أن مبادىء الاشتراكية لم تكن مجهولة فى المجتمع الإسلامى فى عهد محمد نفسه . وأن هذه المبادىء طبقت فى كثير من الأحيان أكثر مما طبقت بأوربا فى أى وقت مضى بعد ذلك التاريخ . ولعل هناك بعض القراء الذين لا يودون أن يتأملوا كثيراً من النصوص التى كثيراً ما يبدو أنها تقطع سلسلة الأفكار ، ولهذا فلن أعرض فى هذا الكتاب إلا للنقط الأساسية .

للاشتراكية من وجهة النظر الحديثة مظهران :

الأول : اشتراكية الدولة وهى إما أن تكون مركزة أو ممثلة فى المجالس البلدية .

الثانى : الاشتراكية الصناعية .

والنوع الأول هو المظهر الأهم ، ذلك لأنه إن كانت الدولة اشتراكية فستصطبغ الصناعة بالاشتراكية إلى حد كبير ، والأرض نفسها هى منبع الإنتاج ومجال للصناعة العظمى ، وإذن فينبغى أن نعير اشتراكية الأراضى واشتراكية الدولة أعظم اهتمام ثم إن الإسلام قد قصر نفسه على هذا النوع من الاشتراكية فبمجرد أن أصبحت الدولة فى يدى الرسول صلى الله عليه وسلم اصطبغ دستورها بالصبغة الاشتراكية وأصبحت الأراضى ملكا للدولة ، وقد طبقت هذه السياسة عند ما بسط الإسلام رواقه على البلاد الأجنبية وحتى المغول فى الهند نهجوا هذه السياسة الاشتراكية فيما يختص بالأراضى ، كما أن خلفاءهم ظلوا ينسجون على منوالهم إلى يومنا هذا

مكتبتنا العربية

على نحو مسرف لدرجة أنه لا ترد جميع المناجم إلى الدولة فحسب ، بل إذا اكتشف شخص منجما فعليه أن يرده إلى الدولة التى تعد المالك الحقيقى للأراضى ، وكل مايوجد تحتها ، وقد كانت الأراضى إبان الحكم الإسلامى تؤجرها الدولة للشعب ، وبذلك كانت تعتمد مالياً على الدخل الذى يأتيها من الأرض التى لا تزال حتى الآن المصدر الرئيسى لموارد الدولة ، ويقضى قانون الميراث فى الشريعة الإسلامية بأن تقسم ثروة المورث إلى حصص ضئيلة ، وبذلك تتناول ملكية الدولة عدداً كبيراً من الأفراد جيلا بعد جيل ، ولا شك أن هـذا القانون يسدد ضربة قاضية إلى الدوقيات الواسعة ، فالمالك الحقيقى للأرض هو الدولة ، ونظراً إلى أن الدولة اشتراكية فإن أهم وسائل الإنتاج ستكون خاضعة لملكية الشعب .

على أن هـذا النوع من اشتراكية الدولة ليس هو النظام الوحيد الذى سجل محمد فيه نظاماً تقدميا . لأن نظـام الدولة نفسها كان قائما على أسس اشتراكية صرفة . ومما يجدر ذكره أن الاشتراكيين فى هـذا العصر ينادون بالاشتراكية الديموقراطية فهم يريدون أن تقوم الحكومة على أساس تطبيق نظام إيفاد مندوبين إلى المجالس أو الهيئات التمثيلية ، بيد أن الحكومة القائمة على النظـام النيابى أو التمثيلى ديموقراطية وليست اشتراكية بالمعنى الحقيقى . فالنظام الاشتراكى يقضى بأن يكون للشعب نفسه صوت مباشر فى الدولة . وقد بلغت الدولة على عهد الإسلام ذروة الاشتراكية فى هذا الصدد . فقد كان النـاس يعلمون أن التشريع ليس فى يد وزارة أو برلمـان ، وأنه لا يخضع قط لمصالح أية طبقة أو جنس أو دائرة انتخابية . فجميع قوانين الإسلام مقدسة ، صدرت عن مشرع لا يحابى أحـداً ، فهى ليست من صنع الإنسان وليست من صنع أية هيئة تمثل فريقا من أصحاب الامتيازات : بل إن للإنسانية ـ كوحدة ـ امتيازاً مشتركا ، وليس فى وسع شخص أو جماعة متجنين أو مختارين تغيير تلك القوانين من أجل طائفة خاصة أو حزب أو طبقة . والجمعيات التشريعية اليوم كلها تعد هيئات نيابية ، والحكومات التى تقوم على أساس هذا النظام تتيح الفرصة لقيام الأحزاب ، ومن شأن الأحزاب أن تخلق روحا غير اجتماعية ، والتشريع الذى يرجع فيه إلى الشعب أقرب إلى الاشتراكية من التشريع القائم على النظـام النيابى ، ولـكن يجب أن يكون

مكتبتنا العربية

المرجع هو الشعب كله دون إقصاء طائفة أو حزب ، ومن ناحية تفسير القانون المقدس (القرآن) للمسلمين فقد أعطى الإسلام امتياز هذا التفسير للرجل والمرأة على السواء وقد يكون التفسير الذى تذهب إليه امرأة عجوز فقيرة خيراً من تفسير الخليفة الذى يجب عليه فى هذه الحال أن يتبع الرأى الصائب .

ويقضى هذا القانون بأن تكون الحكومة فى أيدى الأفراد بحسب مقدرتهم واستحقاقهم عن طريق المندوبين . وكأن رؤساء الحكومة أدوات يقومون بحاجات ورغبات الشعب حتى يسود القانون الإلهى وفقا للتفسير الذى يذهب إليه الشعب .

هذا وتعد البيروقراطية فى الحكومة من أخطر النظم . ولهذا فإن المسلمين كانوا يأخذون حذرهم منها ، ولم تكن حكومتهم بيروقراطية بأى معنى . ولم تكن هناك أقسام حكومية أو وزارات ، إذ لم يكن رؤساء الحكومة مستقلين عن الرأى العام كما هو الشأن فى الوزارات القائمة فى حكومات العصر الحاضر الديموقراطية ، وكان على زعماء المسلمين أن يحترموا إرادة الشعب فى كل شأن من شئون الحياة ، اجتماعية كانت أوسياسية ، ولم يكن فى وسعهم أن يغفلوا مطالب الشعب فى شأن ، ويحتموا وراء الأغلبية البرلمانية فى شأن آخر كما يفعل اليوم الوزراء الديموقراطيون .

وتعرض الكاتب بعد هذا للصحافة الأوربية حين نددت بتصرف الطليان فى طرابلس ، قائلا إن هذا التنديد إنما يقع على الشعب نفسه ، بيد أن الوزراء الأوربيين أجمعوا على إهمال الرأى العام ، وأصموا آذانهم عن كتابات الصحف . وحتى أول البرلمانات [1] (الترجمة الحرفية أم البرلمانات The mother of Parliments) ليس ديموقراطيا ، إذ ظل إلى العام الماضى خاضعا للصوت الجائر الذى ينطلق من هيئة ليست ديموقراطية ولا ممثلة . أما الديموقراطية الصحيحة فيجب أن تضع الإدارة والتشريع فى يد الشعب ، وبصرف النظر عن النظام الاشتراكى فإن الغربيين لم يستطيعوا إنتاج نظام ديموقراطى كامل لدولهم ، فلا يزال الجيش فى كثير من دول أوربا أجيراً فى حين أن الإدارة المدنية فضلا عن الجيش كانت خاضعة للنظام

(١) لعله يقصد البرلمان الانجليزى .

مكتبتنا العربية

الإسلامى القديم الذى يقضى بأن يكون القائمون عليها أبناء الأمة . هذا وقد كان يوجد بحكم النظام الإسلامى جيش من المواطنين يخوض غمرات القتال دفاعا عن شرفه وبلاده كما هو الشأن مع أبطال الجيش الذى دافع عن طرابلس ، ولم يكن الجنود المسلمون . والمدنيون المسلمون يقبضون رواتب على شكل أجور ، وكانت الدولة تتكفل بأبنائهم وأسرهم ، كما هو الشأن مع طلاب الكليات أو مع المسنين والأطفال الذين ليس فى وسعهم أن يستقلوا بالعمل لكسب قوتهم . وكان الشجعان من الجنود والقواد يقبضون مكافأة جزاء لخدماتهم الوطنية ، وكانوا إذا تركوا أرامل أو يتامى تكفلت الدولة بمن تركوا ، وأما الذين يستطيعون أن يقوموا بنفقات طعامهم وحاجاتهم فلا تصرف لهم أية مساعدة مادية فى وقت الحرب ، بل عليهم أن يتولوا أمر أنفسهم كسائر الرعايا . ومن الأمثلة الحية لهذا الصنف ، المجاهدون العرب من أهل طرابلس .

ومجمل القول : أن التنظيم العسكرى والمدنى للدول الإسلامية كان اشتراكيا يكاد يبلغ حد التمام ، ولكن لا يمكن القول بأن هذا النظام كان مطبقا على الناحية الأخرى من الاشتراكية ، وهى الاشتراكية الصناعية . إذ لم يكن من الميسور إحداث تطور عظيم فى الاشتراكية الصناعية نظراً إلى أن الصناعة كانت حينئذ لا تزال فى طفولتها .

(يتبع)

الأجواد

أجواد الإسلام ثلاثة كانوا فى عصر واحد : عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأول من حيا على طعامه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وأنت ربيع لليتـــامى وعصمة ... إذا المحل من جو السماء تطلعا

أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة ... وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعا

مكتبتنا العربية

من مآسي الحياة

لحضرة الأستاذ ابراهيم عمار

مراقب بالأزهر

نشأت فى مصر . لا تعرف عن أهلها ولا بلدها شيئاً . فقد غادرت الريف فى سن مبكرة . لتخدم عند أسرة تقيم فى المدن .

وكان أبوها قد مات ، ولم يترك شيئاً يورث ، فالتوت سبل الحياة بأمها المعدمة ، واعتاصت عليها طرائق العيش الشريف ، ولم تجد فى حياة الناس متسعاً لها ، ولا فى مالهم بابا تستجديه .

فلجأت إلى التزوج ، ورماها الزمن بزوج فقير لا يكاد يجد ما يقيته ، ورضيت هى به لتتقى ألسنة الناس ، وتدفع غائلة العوز الشديد . . . ولكن حاجته الملحة ، وحالته الضيقة ضاقا بابنتها ، فاحتال للتخلص منها . فأخذ يزين لها حياة المدن ، ويحببها فى عيشها الرغيد ، ويرغبها فى دفع بنتها إليه . . . وما زال بها يلاطفها حينا ، ويقسو عليها حيناً ، حتى لانت آخر الأمر . . . وكان هذا آخر عهدها بابنتها ما بقى لها من حياة .

* * *

سافرت إلى مصر ، وزاولت مهنتها التى ساقتها إليها المقادير ، كما اعتادت مثيلاتها من الخدمة فى بيوت القادرين . فلقيت عنتاً ، وأصابها مكروه ، فهامت على وجهها تبحث عن بيت تجد فيه الرحمة والأمن ، وتصيب فيه الخير والدعة ، وتشعر بالهدوء والاطمئنان ، ولكن حظها العاثر قد آلى أن لا يهدأ لها بال ، أو يقر لها مضجع ، أو تسكن منها نفس . فرماها فى بيت لم يكن خيراً من سابقه ، وبأناس لم يعرفوا الإحسان ولم يقروه .

فظلت تجرب حظها ، وصارت يلفظها بيت فيتلقفها آخر بالشر والنكر ، حتى ضاقت بالحياة ، وثبت فى نفسها أن « السادة » كلهم سواء ، وأن قلوبهم جميعاً قد

مكتبتنا العربية

تجردت من الخير ، فلم تدن منه ، وأن نفوسهم قد خلت من الإيمان فلم يراقبوا الله ، ولم يخشوه ، وكأنهم أمنوا مكر الله ، وغدر الزمن ، ومداولة الأيام ، فلم تهدهم عظة ، ولم يهدّ من سورتهم خوف من قانون ، أو جزاء من عقاب ، أو صوت — ولو خافت — من تقريع النفس وتأنيب الضمير .

وأى ضمير عند هؤلاء ، وقد أبطرتهم نعماء الحياة ولينها ، فأنكروا مرارة العيش وقسوة الأيام ، ولم يبالوا بطبقة « الخدم » ونسوا أنهم مثلهم كلهم من آدم وآدم من تراب ؟ ! !

* * *

ولما آدها الاحتمال ، وعيل الصبر ، أنكرت ماضيها وأقبلت على حياة جديدة فيها اللهو والإغراء ، وفيها الطهر والعفاف ، وتزوجت أخيرا من « عامل » فرضيت به ، وهدأت نفسها وقرت ، ووهبت بيتها وزوجها كل ما أوتيت من قوة وهمة ، فكانت تمضى نهارها فى إعداد البيت وتهيئته ، وتسعى ليلها فى إسعاد زوجها والتخفيف عنه ، لا تبالى بما تبذل من وقت وجهد ، لا تمتعض من شى ولا تضيق بشىء . . . سواء لديها أصابت طعاماً شهياً رغداً ، أم أصابته قديدا بغيضاً . . . وما زالت تلك خطتها حتى من الله عليها بمولود « ذكر » .

فرحت بوليدها كثيراً ـ واغتفرت للزمن ـ من أجله إساءته ، وطوت صفحة الماضى ، وفتحت صفحة جديدة أخذت تملؤها بالتفانى فى تربيته وتنشئته ، بقدر ما يتسع لها عيشها المحدود .

ورفهت عن زوجها فساهمت ـ بنصيب محمود ـ فى جلب القوت وخفض الرزق : فكانت تبيع أوراق « اليانصيب » حيناً ، وتتجر فى البضاعة التى تعرضها الفقيرات على أفواه الأزقة والحارات أكثر الأحيان ، ووضعت أملها كله فى وليدها ، وجعلت حياتها من حياته ، وسعادتها من سعادته . بل جعلت حياتها وسعادتها وقفاً عليه : لا تفكر إلا فيه ، ولا تعمل إلا له ، ولا تأتى أمرا أو تدع شيئاً إلا من أجله ، وفى ظل هذا الحدب ، وتحت تلك الرعاية والعناية ترعرع الولد ، وتدرج فى طفولته إلى أن اكتمل نموه فدفعت به إلى المدرسة .

مكتبتنا العربية

وقد أوتى « محسن » ذكاء نادرا ، وعقلا حصيفاً ، وقوة وافرة ، وظهرت بوادر ذلك عند ما أتم تعليمه فى المدرسة الأولية ، فالمدرسة الابتدائية ، إذ بذ أقرانه ، وكان الأول ، وظفر بمجانية التعليم الثانوى لتفوقه ، وظل محافظاً على « الأولية » حتى نال « التوجيهية » .

وعندئذ رغبت أمه فى أن ترتاح من الكدح وراء العيش ، فطلبت إليه أن يسعى لدى الحكومة أو لدى شركة ، عله يجد وظيفة ، وفى مرتبها الضئيل ما يسعها ويسعه .

أليست قد نشأت على الحرمان ! أو ليس هو قد ربى على الكفاف ؟ لذلك كان كل هناءتها وسعادتها فى أن يوظف لتباهى به لداتها وكثير عليهما الثمانية جنيهات .

ولكن « محسناً » قد تذوق لذة الظفر على الأقران ، وعرف « فيما عرف » حلاوة العلم وكرامة العلماء . فأبى ألا أن يتم تعليمه فى الجامعة ولو كلف أمه النصب والعناء .

وأخيرا رضخت أمه لرغبته ، ودخل كلية الطب ، وكان كعهدنا به مبرزا ظافرا ، وانتهى من دراسته كأكرم ما يكون طالب انتهى من دراسته .

وفى فترة انتظار النتيجة كانت أمه تعد الساعات والثوانى ، وتعلق عليها الآمال الطوال العراض .

وفى اليوم الذى ظهرت فيه نتيجة النجاح كان الموت قد اختطفه من يديها ، ففزعت وشدهت وفغرت فاها ولا زال فاغرا حتى الآن ؟ . . .

هذا من أقسى ما يعانيه النوع البشرى فى حياته الدنيا ، وهو ليس بالشاذ النادر ، فإن لم يكن المبتلى بمثله ردء من دين كان الموت عنده أفضل من الحياة ، وكثيرا ما قضى على حياته بيده !

نعم إن فى الدين لسلوى ، سلوى تشفى الصدور وتملؤها نورا . فلا تضق ذرعا بمآسى الحياة ، ولكن اركن فى شدائدك إلى الدين تجده ينجدك ، ويوصلك إلى مأمنك من حيث لا تحتسب ولا تتخيل ؟

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

زواج حضرة صاحب الجلالة الملك

مهرجانات تفوق الوصف

تم فى أسعد الأوقات وأبركها عقد قران حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق الأول » ملك مصر والسودان ، وحضرة سليلة المجد والشرف العالى صاحبة الجلالة الملكة « ناريمان » فى يوم الأحد الثلاثين من شهر رجب لسنة ١٣٧٠ هـ ، الموافق لليوم السادس من شهر مايو لسنة ١٩٥١ ، فى سراى عابدين العامرة ، فى حفل جمع أصحاب السمو أمراء وأميرات البيت العلوى الكريم ، وكبار رجال الدولة من ملكيين وعسكريين ، وجمهوراً كبيراً من السراة والنزلاء المحترمين . فكان يوما مشهوداً لم يسبق له مثيل ، إذ اتفق وعيد جلوس جلالة الملك حيث يؤم السراى الملكية الألوف من الوجهاء وكبار الموظفين وسفراء الدول وقناصلها وأعيانها المبجلين لتهنئة جلالة « الفاروق » بعيد جلوسه السعيد . كل هذا جعل ذلك اليوم من أحفل ما شهدته القاهرة من الأعياد الملكية .

مكتبتنا العربية

وقد زادفى رونق هذا اليوم ، وعظم من شأنه ، أنه اجتمع فيه أمران عظيمان : زواج جلالة الملك ، وذكرى جلوسه السعيد ؛ وكلاهما يهتم له الشعب ويفرح به ، فلا غرو إذا بالغ فى إظهاره شعور الغبطة فيه إلى الحد الذى رأيناه ، مما يسجل فى تاريخ هذه البلاد ، ويبقى ذكره أبد الدهر .

ومجلة الأزهر : التى تمثل أرقى وأعرق جامعة فى الشرق بأسره ، يسرها أن تنشر هذه الكلمة عنه فى أولى صفحاتها ، وتذيعها فى الخافقين ، راجية للأمة المصرية الكرامة والجلال ، ولجلالة مليكها المعظم العمر المديد ، والعز والتأييد ؟

محمد فريد وجدى

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مكتبتنا العربية

خطبـــــة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن
وكيل الأزهر

فى إحياء ذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول

وتوزيع الجوائز على الناجحين

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك ـ حضرات السادة

نحتفل اليوم بذكرى ساكن الجنان المغفور له الملك فؤاد الأول ، أحسن الله مثواه . وتمر السنون وتتعاقب الأيام وذكره يعمر القلوب ويملأ الأفئدة ويلهج الألسنة بالدعاء إلى الله أن يمطر جدثه شآبيب الرحمة والرضوان ، جزاء ما أدى لأمته من الخير وجليل الأعمال .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كرس الملك فؤاد حياته كلها فى مصر وخارج مصر ، لخدمة بلاده التى فطر على حبها منذ حداثته ، وكان هدفه فى جميع أعماله خير الأمة وتحقيق النفع العام لجميع أبنائها ، ولقد أثر عنه أحسن الله مثوبته قوله « ليس أمراً أن تكون أميراً ولكن الأمر كل الأمر أن تكون نافعاً » .

كان من أول ما اهتم به الملك فؤاد العناية بشبيبة البلاد وتنشئتهم تنشئة صالحة ، لأنه كان يرى أنهم عماد الوطن وعدته فى المستقبل ، وفى صلاحهم صلاح الوطن ، ولهذا حرص على أن يهيىء لهم تقدما علميا ، ويوفر لهم ثقافة ممتازة متعددة النواحى ، تقوم على تمجيد ماضيهم العريق ، وتفتح أمامهم طريق البحوث العلمية الحديثة التى سبق اليها العالم لتكون لمصر ثروة علمية نافعة تتبوأ بها مكانتها المجيدة بين الأمم .

وكان أول مظهر لهذا الاهتمام إنشاء الجامعة المصرية بعد أن كانت أمنية وطنية وفكرة قومية ، تظهر حيناً ثم تخبو ، لما تلاقى من الصعوبات ، فقد عمل رحمه الله

مكتبتنا العربية

على أن تكون حقيقة واقعة ، ثم وجه عنايته إلى النهوض بها والتمكين لها لتكون أداة فعالة فى إذكاء الروح العلمية بين الشباب ، وعاملا قويا فى بعث حركة البحث والتأليف على أحدث نظم الجامعات العالمية العريقة .

وقد بذل لها فى هذا المضمار من قوة نفسه ما قوى دعائمها ، ووسع مجالها وأعانها على النهوض حتى بلغت فى عهده الميمون الذروة ، وحققت ما عقد عليها من آمال - وها هى اليوم تحمل اسم فؤاد العظيم تباهة فخورة ، تسامى أعظم الجامعات جلالا ومجداً .

لم يفت فؤاد العظيم ما للأزهر الشريف من أثر بارز فى الحياة المصرية ، وتقويم الشباب وتنشئتهم على الفضائل الإسلامية والأخلاق القويمة . ولا ماله من مكانة سامية فى البلاد الإسلامية ، فحرص على أن يبلغ من التقدم ما يحيي به أمجاده السالفة ويهيىء له فى المجتمع الإسلامى مكانه المرموق ، فأحاطه بعين رعايته حيث أشار رحمه الله بتعديل قوانينه وإصلاح مناهجه ، ليساير حركة النهضة العلمية التى انبعثت فى البلاد بفضل جهوده ، فكان أن صدرت عدة قوانين تدرج بها الأزهر فى حركته العلمية إلى أن توجت بقانون سنة ١٩٣٠ ، وهو القانون الشامل للإصلاح ، حيث أنشئت به الكليات ونظم به الأزهر تنظيما جامعيا ، وأدخلت فيه اللغات الأجنبية والشرقية وهو تنظيم ساير فيه الأزهر روح العصر مع الاحتفاظ بالتراث الفكرى الإسلامى والعناية بفهم ما فيه من كنوز وذخائر

وبتوجيهه الكريم ، أرسلت بعثة فؤاد الأول من أبناء الأزهر إلى الخارج ليتزودوا من العلم والمعرفة ، وليدرسوا أحسن النظم الجامعية فى البحث والتأليف . وأرسلت بعثتان من رجاله إلى الصين والحبشة لنشر الثقافة الإسلامية فى أرجاء هذه البلاد . فكانت هذه البعوث نواة لحركة التوسع العلمى التى نمت واتسع نطاقها فى عهد شبله العظيم ، الملك فاروق الأول أعزه الله

وقد عمل أحسن الله مثواه ، على تشجيع الطلاب على النبوغ والتفقه فى العلم فأرصد مكافآت سخية للنابغين والأوائل منهم فى الكليات ، وما هذه الجوائز التى تقدم اليوم لأوائل الناجحين فى امتحان الشهادات العالية للكليات إلا عارفة من عوارفه ، ويد من أياديه الغر الميامين على الأزهر وأبنائه .

مكتبتنا العربية

وجملة القول أنه فى عهد الملك فؤاد العظيم قد انبعثت فى الأزهر كله نهضة علمية واسعة ، فانتشرت معاهده فى الأقاليم ، ونشطت حركة البحث والتأليف بين رجاله وأخرج أبناء الأزهر مئات البحوث القيمة فى شتى نواحى العلوم ، وتبوأ الأزهر بفضل رعايته مكانة ملحوظة فى الحياة العامة فى مصر وخارجها ، وهو فى عهد الملك فاروق ، أعزه الله ، قد خطا فى هذا السبيل خطوات موفقة ، وهو يسير قدما فى نشر الدين والثقافة الإسلامية فى مصر وخارج مصر بما نرجو أن يحقق الله به الخير العام للإنسانية .

لم يقف فضل الملك فؤاد فى النهوض بشبيبة البلاد عند حد العناية بالأزهر والجامعة ، بل امتد إلى التعليم العام فشمل جميع مراحله ، من ابتدائية وثانوية وفنية حيث أشار بإصلاح نظم التعليم ومناهجه فى المراحل المختلفة بما يتفق ومصلحة الأمة .

وبحسن توجيهه انتشرت مدارس التعليم الإلزامى فى القرى والبلاد ، وأنشئت مدارس ليلية لتعليم العمال وغيرهم ، وكان هدفه فى كل ذلك النهوض بأبناء الأمة ومحو الأمية من صفوفهم ؛ لتسامى مصر أمم العالم حضارة ومجداً .

كما وجه عنايته إلى رعاية البحوث العلمية التى تعود على الإنسانية بالخير ، فشجع الجمعيات العلمية وأمدها بروحه ، وأظلها برعايته ، حتى استطاعت أن تؤدى رسالتها وأن ترفع اسم مصر ومكانتها ، وفى مصر الآن كثير من الجمعيات ومعاهد العلم النافعة كلها من غرس يديه ؛ كالجمعية الجغرافية ومعهد الأحياء المائية وجمعية الاقتصاد السياسى وجمعية فلاحة البساتين وجمعية الهلال الأحمر ، وجمعية الإسعاف وغيرها .

واهتم جلالته باشتراك مصر فى المؤتمرات الدولية ، لما فى ذلك من عظيم الفائدة من ناحية الدعوة إلى مصر بين أمم الأرض ، ومن ناحية الاستفادة من تبادل البحوث فيما يهم مصر الاطلاع عليه من التقدم فى أساليب الزراعة والصناعة والاقتصاد وغير ذلك . وبفضله دعت مصر إلى عدة مؤتمرات كان لها أحسن الأثر فى الدعاية لمصر الحديثة التى أنشأها هذا الملك العظيم .

وكان جلالته شديد العناية بالأدب والفن ، حريصاً على أن يوفر للشباب ذخيرة قومية من الكتب التى تعد مراجع فى الأدب واللغة ، حيث أشار ـ أحسن الله ذكراه ـ بطبع أمهات الكتب الدينية والعربية التى تعد من ذخائر التراث الاسلامى .

مكتبتنا العربية

وأمر فطبع المصحف الكريم طبعا متقنا تحت إشراف لجنة علمية ، ثم وزع على المعاهد والمدارس وكثير من البلاد الإسلامية . وهو معد لكل من يطلبه من المسلمين فى جميع أقطار الأرض .

هذه لمحة من جهود الراحل العظيم فى النواحى الثقافية والعلمية ، أما جهوده فى النواحى الاجتماعية والعمرانية والسياسية فهى أعظم من أن ألم بها فى مثل هذه العجالة ، ويكفى أن أقول إن له فى كل بقعة من الوادى أثرا من آثار نهضته يحس به كل مصرى . ونظامنا الدستورى الحديث وهيئاتنا النيابية والتمثيلية فى الخارج ، كلها لبنات قوية وضعها طيب الله ثراه ، وبنت عليها مصر الحديثة مجدها وعظمتها . ولقد أتم الله نعمته عليه فشهد بنفسه الغرس الذى تعهده ، وأحس عظمة المجد الذى شاده .

وانتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضيا فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ ودوى صوت القدر فى أرجاء الكون « مات فؤاد العظيم وليحى الملك فاروق » .

رحم الله فؤاداً ، وجعله فى أعلى عليين مع الصديقين والشهداء والصالحين .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مكتبتنا العربية

كلـــــة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التى ألقـــاها

فى احتفال « جمعية المحافظة » على القرآن الكريم

بتوزيع الجوائز على المتفوقين

بحضور مندوب من لدن حضرة صاحب الجلالة الملك

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي الأمى الكريم ، الذى أنزل عليه القرآن ، هدى ورحمة ، وذكرى للمؤمنين ، وعلى آله وصحبه ، حفظوا كتاب الله واهتدوا بهدى الله ، ففازوا بالسعادة فى الدارين . .

دعوة الحق

حضرة صاحب العزة مندوب جلالة الملك

حضرات السادة :

إذا كانت جماعات البر والخير جديرة بالتشجيع والتقدير ، فإن واحدة من هذه الجماعات ، لا يمكن أن تقارن بجمعية المحافظة على القرآن ، فى سمو الغاية ، ونبل المسعى ، إذ ليست هناك غاية أسمى من حراسة القرآن ونشره ، لأنه الأساس الذى نحفظ به حياتنا ، ونصون به شرفنا ، ونحمى به فى هذه الحياة الدنيا كرامتنا السياسية والاجتماعية .

مكتبتنا العربية

القرآن الذى ينفر من الذلة وينفّر منها ، ويمكن للعزة فى نفوس أبنائه .

القرآن الذى أدرك بعض غلاة الاستعمار أنه سبب نهوض المسلمين فى الماضى ، وأنهم إذا عادوا إلى التمسك به عادوا من جديد إلى اقتباس المجد ، والتخلص من مظالم المستعمرين واستبدادهم ، فصاح فى قومه قائلا « إنه لا بقاء لنا فى الشرق إلا إذا انتزع هذا الكتاب من أيدى المسلمين » . ولقد صدق ، فإن عزة المؤمنين التى قررها القرآن لا يمكن أن تجتمع مع ذلة المستعبدين .. إن هذا الكتاب نبع فياض بأنبل المثل وأزكاها ، ولو أننا روينا ظمأنا الروحى والمادى منه ، لما شعرنا بهذه الذلة فى اتباع الغرب ، وارتقاب الغيث من سرابه الخادع .

حرية الرأى والعدالة والمساواة فى القرآن

يا حضرات السادة :

إن التجارب التى عانتها الإنسانية من حربين كبيرتين ، تتأهب بعدها لحرب أخرى ، أثبتت أن الأمم لا تنهض إلا على أسس الحرية والعدالة والمساواة فى الحقوق والفرص ، والمساواة فى الشدائد والمحن . والضمان الذى يرد عليها هذه المطالب إن عدا عليها جبار عنيد ، أو افتات عليها شعب مستكبر طاغ ، وللأمم جميعاً أن تسعى إلى هذه الأهداف ، وأن تبذل فى سبيلها أحرّ دمائها ، وأغلى أموالها ، فإن الحياة بدونها لا تساوى فتيلا . ولو فقه المسلمون القرآن العظيم ، وأبصروا ما رسم للعالم من غايات ، وخط له من مناهج واتجاهات ، لعلموا أن ما يطمحون إليه فى متناول أيديهم ، ليس عليه غبار من شبهة ، أو ظل من ارتياب .

إن الإسلام مكن للحرية يوم غرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، ويوم علّم المسلم أن لا يذل إلا لله ، وأن لا يستعين إلا بالله ، وأن لا يتوكل إلا على الله ، وأن لا يشعر بجلال أو كبرياء إلا لصاحب الجلال الكبير المتعال ، ويوم حارب كل تألّه كاذب للأدعياء ، الذين ظهروا فى تاريخ الإنسانية ، متألهين متجبرين ، وتبعهم الناس جاهلين ، أو مخدوعين : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » . ولقد كان

مكتبتنا العربية

صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أكبر معلم لحرية الفكر . يوم نادى فى عاصمة الوثنية بتوحيد الله ، ويوم صبر على الأذى فى سبيلها ، وتحمل العنت لإبلاغها ؛ وإزاحة العوائق من طريقها . وهل كانت هجرته إلا تقريراً لحرية العقيدة ؟ وهل كانت حروبه التى صحبت دعوته إلا دفاعاً عن حق من حقوق الإنسانية العالية ؟ هو حق كل امرىء أن يعتنق ما يطمئن إليه من آراء تتفق مع الفطرة السليمة ، ويعيش فى ظله ، من أجل ذلك شرع القتال . وقال القرآن الكريم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . والفتنة معناها استخدام القوة فى مصادرة الآراء الصحيحة ، واضطهاد المبادىء السليمة ، وكما أقام الإسلام بناء المجتمع على الحرية الصحيحة ، جعل العدالة أساساً للشريعة ليطمئن إلى برها وسماحتها العدو والصديق ويصل إلى حقه فى ظلها القوى والضعيف ، ولقد شرحت فى موقف سابق من هذا المنبر ، كيف كان عامة الناس يقاضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسلمين ، فلا يستنكف الخلفاء أن يحضروا مجلس القضاء ، ولا يترددون فى تنفيذ ما يلزمون به من حقوق .

العدالة فى القرآن ، تتضاءل أمامها روابط النسب مهما قربت ، وفوارق الدين مهما بعدت « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من وَلايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » فانظر كيف سادت العدالة منطق القرآن وجعلت للعهود حرمة لا تضعفها وحدة الدين ، وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جميعا فى ساحة القضاء فلا تعلو إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة ، ولو كان فى ذلك خذلان المسلم الحاكم وانتصار الكتابى الضعيف . . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين

مكتبتنا العربية

الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله فى الخلق ، فليس هناك جنس أفضل من جنس ، ولا لون أكرم من لون .

وفى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وكان الرسول عليه السلام يقول « سلمان منا آل البيت » .

نعم . علم الإسلام أبناءه ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة بينهم على سواء ، وأن السوقة والعظماء أمام تعاليم الدين ، وموازين الحساب ، وفى ميادين العمل ، لا يفضل أحد منهم أحدا إلا بالتقوى والخلق الكريم ، فأين ذلك مما يحدث فى العالم اليوم تحت إشراف السياسة العالمية ، وبوحيها ، ورضاها من تقسيم خلق الله الى سادة وعبيد ، ومن تحويل المستعمرات الى حقول استغلال ، يمرح فيها البيض ، مفتاتين على جهود الكادحين ؟!

الحقوق التى قررها القرآن للمعوزين فى المال لا نظير لها فى النظم الحديثة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ومن أروع ما حفل به القرآن الكريم ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيدا للتضامن الاجتماعى الذى يشد بناء الأمة شدا محكما ، فلا تتساقط منه لبنة ، أو تحدث فيه ثغرة .

فالغنى فى نظر القرآن وظيفة اجتماعية ، وصاحب المال يحاسب على تصرفه فيه ، وتناط به حقوق يجب أن يؤديها ، ويجب على الدولة أن تسأله عنها ، وقد فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وهناك حقوق لا تقل فى خطرها عن الزكاة ، أوجبها الإسلام كما أوجب الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن فى المال حقا سوى الزكاة ، وأوضح القرآن الكريم هذا الحق مبينا حقيقة البر ، وعناصر التقوى ، ودلائل صدق الإيمان فقال « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى ،

مكتبتنا العربية

والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » . وأردف هذا بقوله « وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة » فإسعاف المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين حق على من صادفهم فى أزمتهم ، ولو كان قد أدى زكاة ماله ، وهذا من أنواع الماعون ، الذى جعل الله الويل لمانعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين « الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن إكرام الضعيف المنقطع عن أهله وماله ، حق على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل فى المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرهفة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ، ما تسد به ديون الغارمين العاجزين ، وذلك ما لا نظير له فى شرائع البشر — وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق فى الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء . (إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية ، فهم منى وأنا منهم) . حدثونى إذاً بعد هذا الذى سمعتم ، ماهى الاشتراكية الحديثة التى ضمنت للناس ما ضمن الإسلام من سماحة ومرحمة ، وإنكم لتعلمون مما ذكرنا أن الحقوق التى قيدت بها الملكية ليست فى نظر الإسلام نافلة هينة ، ولكنها نظام مفروض ، يقاتل دونه الإسلام ، وعصمة الدماء والأموال ، مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قرره عليه الصلاة والسلام . ؟ !

هذا أيها السادة هو القرآن الذى أخذت هذه الجمعية نفسها بتحفيظه للناشئة ، بعد أن حورب فى بلاده بكافة الوسائل وشتى الدسائس والحيل التى أحكمها الماكرون فماذا يمكن أن نبلغ من القول فى فضل هذه الجمعية ؟ إنا ندع شكرها لله الذى يجزى المحسنين .

وفقنا الله وإياكم للاهتداء بهدى القرآن ، والتأدب بآدابه فى ظل صاحب الجلالة الملك العظيم ، ملك وادى النيل ، فاروق الأول حفظه الله ؟

مكتبتنا العربية

كلـــــة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر

التى ألقـــــاها

في الاحتفال بذكرى المجاهد العربي

السيد عبد القادر الحسيني ، بدار جمعية الشبان المسلمين ،

أيها السادة :

إن احتفالنا اليوم بتلك الذكرى المجيدة ، ذكرى أحد أبطال الجهاد المغفور له السيد عبد القادر الحسيني ، يبرز لنا أعظم ناحية من نواحي الجهاد لأشرف غاية من غاياته ، في هذا المثل الحي الخالد ، ورمز التضحية (عبد القادر) الذي جاهد فبذل أعز ما يملكه المجاهد ، وهو نفسه ودمه . وجاهد في أنبل هدف يهدف اليه الأبطال ، وهو حماية الدين ، والعقيدة ، والوطن ، فاستشهد عبد القادر بعد أن ضرب أروع الأمثال ، ولا غرو ، فإنه نبت طيب نما في أرض خصبة طيبة فلا بد أن يكون لذكراه هذا الخلود .

إن جميع من عرفت من أسرة الحسيني ، كان له شرف اضطهاد الظالمين المعتدين بلون من ألوان الاضطهاد . وكبير هذه الأسرة مثل مضروب في قوة الإيمان ، والثبات على العقيدة ، وتحمل جميع المكاره ، في حكمة ، وعقل ، وثبات نفس ، وقوة جنان ، ونشاط منقطع النظير ، واحتقار لأكاذيب الأعداء ، أو المأجورين ، أو بعض البسطاء المخدوعين .

لم يكن غريباً عندي إذاً أن يقوم عظيم من عظماء هذه الأسرة بذلك الجهاد المبرور ، الجهاد الحاسم ، القاهر ، فإما أن يحسم بقهر الأعداء ، أو يحسم بالاستشهاد .

مكتبتنا العربية

فالجهاد فى نظر المؤمن طريق معبد إلى نصر محقق ، ان لم يكن فى دار الفناء ، ففى دار الخلد والبقاء . (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون) .

ليست ذكريات الجهاد والاستشهاد كلاما يردد ، أو خطبا تعاد ، فذلك من مواطن الضعف بين العرب والمسلمين فى عهودهم الأخيرة ، حينما ألهبوا الأكف بالتصفيق ، وأتعبوا الحناجر بالهتاف ، وراحوا يعددون مناقب السلف وتخاذل الخلف ، وكيف فاز الأولون بالغلب ، وقنع الآخرون بالبكاء .

لا . أيها السادة . ذكريات الشهداء اقتناع بالحق وشعور بوجوب التضحية فى سبيله ، وتدافع إلى استعادته بالعمل لا بالنول . . . ذكريات الشهداء قوة فى النضال ، وعزمة فى الجلاد ، وتسابق واعداد ، حتى يعلم الناس أن العرب والمسلمين أفاقوا من سباتهم ، وصمموا تصميما لا يحول على استرداد مجدهم .

أعداؤنا أيها السادة هم أعداؤنا الأولون ، هم الصليبيون . هم الذين شنوا الغارة على المسلمين فى مدى مائتى عام ، فعمدوا إلى إذلال العباد ، وإفساد البلاد ، وهم ليسوا فى ثوبهم الجديد من الحضارة المكذوبة ، والمدنية المدعاة والزعم المردود بأن الحروب الآن سياسية لنصرة المظلوم ، والأخذ بيد الضعفاء ، وتوزيع العدالة فى الأرض . ليسوا فى هذه الحروب بالنسبة للمسلمين الأصليين يفرقون كلمتهم ويناهضون حقوقهم ، ويطمسون معالم حضارتهم وثقافاتهم . . فإذا كان هؤلاء الأعداء لا يزالون صليبيين فليكن المسلمون جميعاً أيوبيين ، وليكن كل ملك من ملوكهم وكل أمير من أمرائهم وكل زعيم من زعمائهم . ليكن كل واحد من هؤلاء صلاح الدين الأيوبى فى قوة إيمانه وشكيمته ، ورباطة جأشه ، وسلامة رأيه ، وبعد نظره ، وليكن جهادنا فى أنفسنا بالرجوع إلى الدين ، واستجلاء نظمه ، والحفاظ على تعاليمه السامية ، التى ترسم للعالم كله طريق المجد والعظمة والإباء .

ثم يأتى بعد ذلك جهادنا فى أعدائنا الذين لا ينقطعون عن الكيد لنا ، وتمزيق صفوفنا ، وتفريق وحدتنا .

مكتبتنا العربية

هذا سجل التاريخ ، شهادة ناطقة بما كان فى عهد الأيوبيين فى نفس الميدان الذى قضى فيه عبد القادر الحسينى ، من مقاومة صادقة ، وجهاد رائع ، ابتداء من عهد مؤسسها صلاح الدين ، إلى عهد توران شاه .

كللت حياة هذين البطلين بالانتصار الباهر فى معارك معروفة ، وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما فى رد غارات الأعداء ، فكأن هذه الدولة وجدت لتكون عقبة فى سبيل تغلب أوروبا على المسلمين ، أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة .

ولولا وقوف هذه الدولة فى وجه أوروبا المتعصبة لا نقرض الإسلام من الشام ، والجزيرة ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، كما انقرض من الأندلس . والفضل فى ذلك للواقعتين الحاسمتين واقعة (حطين) وبطلها صلاح الدين ، وواقعة (المنصورة) وبطلها توران شاه .

ونحن الآن بصدد انتظار معركة جديدة يقودها بطل من طراز هذين الرجلين العظيمين لطرد الأوربيين من بلاد الإسلام ، وطرد أذنابهم من فلسطين ، قلب العالم الإسلامى .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وإنى الآن أيها السادة أسجل فى طمأنينة وثقة ، وقوة أمل ، أن المرحلة التالية ستنتهى إن شاء الله بانتصار العرب والمسلمين متى قيض الله هذا البطل الذى يقود المؤمنين إلى النصر الموعود ، والظفر المرجو ، ذلك وعد الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

كما إنى واثق من أن مصر ستظل كعادتها فى مقدمة الصفوف ، لدفع الأعداء وحمل اللواء ، وفق الله مصر والعرب ، وحفظ الله الملك .

مكتبتنا العربية

ليس من هنا نبدأ

الملكيات الزراعية الكبرى

لحضرة صاحب العزة مدير المجلة

قال حضرة مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) تحت رقم ٢ من باب (هذه عوائقنا) بعنوان (الملكيات الزراعية الكبرى) :

« وثانى العوائق التى تحول بين المجتمع ونموه وسعادته ـ هذه الملكيات الزراعية الواسعة . . وإذا كانت مصر بلداً زراعياً ، وكانت تسعة أعشار أرضها المزروعة ملكا لمائة أسرة أو مائتين ؛ فماذا يبقى للشعب من ثروة بلاده وأرضه ؟ »

« هذه ظاهرة محرجة ، ولو أنفقنا من الوقت والجهد فى مواجهتها مثل ما ننفقه فى مكافحة الضائقين بها ، لأفدنا كثيرا » .

ثم أتى حضرة المؤلف بإحصاء يبين أن فى مصر (١٦٨٩٤٠٨٣) من المواطنين لا يملكون شيئاً من أرض بلادهم ، أى إن الذين يملكون أجزاء منها لا يزيدون عن أربعة ملايين إلا قليلا .

وعقب حضرة المؤلف على هذا الإحصاء بقوله :

« ترى : هل كتب على بلاد العرب أن تظل وحدها على هذه المحنة الطاغية ؟ ! فإنك لتجد الحياة كلها ضرباً متماثلا من الشذوذ والفوضى . . . ومثل ذلك فى سوريا ولبنان واليمن . . . وفى الحجاز حيث تنقطع أنفاس الحجازيين عدواً ووثباً وراء الحجاج وهم يصيحون : هلله يا حج . . هلله يا حاج . . !! بينما حفنة من المترفين تحصى على الأصابع . . . تسبح فى بحيرات من اللذة والشراب . . . والذهب المذاب .

« يا حسرة على العرب . . . وعلى الشعوب التى أوهنها الحرمان الأليم ! »

نقول : هذه اللهجة المقذعة التى يستخدمها المؤلف فى إيراد الموضوع الذى هو بصدده ، يوهم بأن عوامل من الاستبداد فى تصريف الشئون الاقتصادية تعمل على

مكتبتنا العربية

إيجاده واستمرار وجوده ، وكان الأولى معالجة الموضوع الخطير معالجة علمية لتعلم الشعوب المنوّة بهذا الضرب من الحرمان كنه العوامل العاملة على وجوده وعلى استمراره ، وتتأدى من ذلك إلى طرق الخلاص من آثاره .

والحقيقة العلمية هى أن الشعوب كلها على عهد الحكومات المطلقة السابقة على العهد الدستورى ، كانت على هذه الشاكلة ، فلم يكن لأحد من الفرنسيين أو الإيطاليين أو الألمانيين وغيرهم شبر من الأرض لأحد منهم حق التصرف فيها استغلالا أو بيعاً وشراء ، بل كان الحق كله على الأراضى ومن عليها للملوك وبطاناتهم وكان الشرق كله على تلك الشاكلة .

فلما تولى مصر محمد على الكبير مؤسس الأسرة المصرية المالكة عمل على تنشيط الفلاحين على الزراعة واستصلاح الأرضين ، فكان يفرض عليهم استغلال قطع من الأراضى فرضاً ، وكانوا هم لتصور همهم ، وتقصير ذات يدهم يعجزون عن زراعتها ، ويلجأون إلى الهجرة إلى البلاد المجاورة . فكانوا يهربون إلى سورية ويقيمون فيها طول حياتهم هرباً من هذه التكاليف .

فى هذا العهد ، عمد كثير من كبار رجال الدولة إلى احتياز ألوف من الفدادين واستصلاحها والانفاق عليها ، واستخدام الفلاحين فيها بأقل الأجور ، واستطاعوا بذلك أن يعدوا مساحات واسعة للزراعة الأصولية ، واعتبار ما يحتازونه على هذا الوجه ملكا لهم . فلما هل عهد تحديد الملكيات الزراعية أقرت الحكومة ملكيتهم لتلك الأراضى ، وبقى معظم الفلاحين أجراء عندهم ، ليس لهم مما تعبوا فى استصلاحه غير حظ ضئيل .

على هذا الوجه أصبحت معظم الأراضى الزراعية لكبار رجال الدولة ، ثم لمن دونهم من الموظفين .

وقد فطنت الحكومات السابقة إلى أن حرمان الفلاحين من ملكية الأراضى يجر إلى مشكلات اقتصادية خطيرة ، فعملت على تسهيل حصولهم على ما يستطيعون الحصول عليه منها ببيع الأطيان البائرة إليهم بأثمان زهيدة ، وباعفاء بعض تلك الأطيان المملوكة من الضرائب . فأصبح لهم بهذه الوسائل بعض الأراضى ، وهى لا تزال تعمل على شاكلتها فى هذه الوجهة . وستضطر إلى تقوية هذه الوسائل حتى تبلغ حدها المعقول .

مكتبتنا العربية

على هـــذه الشاكلة جرت الأمم الأوربية فى تمليك الفلاحين الأراضى التى يعيشون عليها ، وقد كان نشاطها أشد من نشاطنا فى هذه السبيل ، ولا نظن أنه يمر قرن حتى تصبح حصة الفلاحين من ملكية أراضيهم أكبر الحصص ، فتتزن الشئون الاقتصادية من هذه الناحية ، وتبلغ الحاجة الاجتماعية حدها الطبيعى ، ولا نظن أن ذلك يكون إلا بعد تحديد ملكية الأراضى .

أما فى أوروبا فقد بلغت أممها أقصى مرحلة من مراحل توزيع الأراضى على الفلاحين ، وحددت فيها الملكيات تحديداً دقيقاً ، فأصبح للذين يشتغلون بالزراعة حق ممتاز فى هذا المجال الحيوى .

ونريد أن نقول إن إحكام وضع قواعد ثابتة لتوزيع الأراضى على المشتغلين بزراعتها أمر بعيد التحقق ، ولكن السير إلى تحقيقه على مر الأيام أمر منتظر بعد أمد ليس بطويل .

فكان المنتظر من الأستاذ مؤلف (من هنا نبدأ) أن يلطف من شدته فى معالجة هذه المسألة الاقتصادية وهى تسير سيرها الطبيعى ، وأن لا يجعلها موضوع انقلاب تتقدمه النذر والصيحات ، وتلام عليه الجماعات والحكومات ، فهى ككل الأوضاع الاجتماعية لا تتولد إلا بتولد عواملها ومقتضياتها ، والدليل على ذلك أن أية حكومة لو أرادت إحداث مثل هذا التطور قبل استكمال مقتضياته ، وتوافر دواعيه ، لما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، لعدم استعداد الشئون الاقتصادية لمواتاته ولا الأيدى العاملة للقيام بحقه . والأستاذ المؤلف يعرف هـذا جيداً ، ولكنه يرمى من وراء الدعوة إليه إلى الدعوة للاشتراكية المتطرفة فى وسط شعوب لم يتمذهبوا بعد بالاشتراكية المعتدلة . فهى دعوة تذهب مع الريح ككل دعوة ليس لها بواعث من الهيئة الاجتماعية ، ولا من حزب قوى الجاه متغلغل فى عدد وفير من المجتمع ، يرى أن لا حياة له إلا بإحداث ذلك الانقلاب الاقتصادى ، اعتقاداً راسخاً منه أنه أمثل المناهج لتحقيق اجتماع أفضل مما نحن عليه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن الاشتراكية المتطرفة التى يدعو إليها الأستاذ لما يمض عليها مدى من الزمان أثبتت فيه أنها أولى من جميع النظم الاقتصادية لحياة الشعوب حياة طيبة . فهى لا تزال وليدة جماعات مفكرة فى بيئات

لم تستكمل وجودها الاقتصادى ، دفعتها إليه عوامل سياسية واجتماعية ليس لسائر الشعوب مثلها ، ولا احتوشتها من عوامل الانقلاب مثل التى احتوشتها . ومثل هذه الجماعات لا تندفع إلى تلك الانقلابات ، ولو أعطيت الاختيار لقبولها . ودليلنا على ذلك ، الشعوب الأوروبية ، فإنها بما أوتيته من الحرية تستطيع بمحض إرادتها أن تستقيم على السبيل الاقتصادى الأصلح لوجودها ، ولكن أكثريتها تحجم عنه ولا تريده ، وتمضى قدما فيما هى فيه ، ليس لها من أهداف سوى استيفاء حقوقها بالوصول إليه من الطريق الدستورى المقرر ، لا من طريق الثورة على النظام الاقتصادى القائم .

وبعد ، فلا يجوز أن يفوتنا أن المبالغة فى طلب التسوية فى مجال الحياة الاقتصادية لا يجوز أن توجد ، فليس ذلك فى قدرة أى مصلح . ولا يمكن أن يؤدى إليه أى نظام فى العالم . فإن الناس يتفاوتون فى المقدرة العلمية والخلقية ، وإذا أمكن أن يحصل رجل بجده واجتهاده على مقدار من الثروة فى مدة محدودة ، لا يمكن لغيره أن يصل إلى مثلها لوجود الموانع دون ذلك من ناحية قدرته العلمية والعملية ، وأخلاقه وقوة احتماله ، وسائر الصفات المؤهلة للإنتاج والاقتصاد ، ولو أوتى الأفراد بحصصهم من الثروة العامة كاملة ، فلا يستطيع الكثيرون منهم أن يحافظوا عليها ، فالتفاوت بين الناس أمر طبيعى لا بد منه ما دامت النفوس متفاوتة ، وما دامت الشهوات تدفع باصحابها إلى تجاوز الحدود فى المتاع ، وإلى الانتهاء إلى الحرمان المطلق ، وبناء على هذه الأصول المقررة لا يمكن أن تصدق أحلام الاشتراكية الكاملة إلا إذا ساد المجتمع نظام استبدادى يجبر الأفراد على توحيد مطالبهم ، والاكتفاء بما لا يضر الحصول عليه بقية أفراد المجتمع . وهذا الاجبار يتنافى وأقدس عنصر يجب ترك المجال الاجتماعى مفتوحا أمامه ، ألا وهو الحرية .

نعم يمكن بتقييد حرية الناس تأليف مجتمع تتساوى فيه الأنصبة من مقدمات الحياة ، فيعيش الناس سواسية لا يزيد بعضهم على الآخرين ولا يقلون عنهم ، ولكن مثل هذا يصبح جحيما لكثير من النفوس يثورون عليها ، ويفضلون الموت على العيش فيها ؟

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

النفير

سور التسبيح فى القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

— ١ —

أقصد بسور التسبيح تلك السور التى نزلت مبدوءة بلفظ «سبّح» أو «يسبّح» أو «سبح» أو «سبحان» وهى سور سبع، منها اثنتان مكيتان هما الإسراء والأعلى، وخمس مدنيات هن الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن.

وسننظر أولا فى هذه الخمس المدنيات.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

* * *

تبدأ هذه السور كلها بتقرير الحقيقة الواقعة فى شأن الإله جل جلاله وماخلق، فتبين أن جميع الكائنات من سماوية وأرضية هى دلائل ناطقات، وآيات بينات، تدل على عظمة خالقها ومكوّنها، وتنزهه عن كل صفة من صفات السوء والنقص، وقد عبر عن هذا تارة بلفظ الماضى: «سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض» وتارة بلفظ المضارع: «يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض» إشعاراً بأن هذه الحقيقة ثابتة من لدن وجدت الكائنات، باقية ما بقيت.

وتشترك هذه السور - بعد اتفاقها فى هذا الافتتاح - فى معنى واحد يبدو أنه غايتها ومقصدها وهدفها الذى ترمى إليه، كما تشترك كلها - بوجه إجمالى - فى الوسيلة التى تتوسل بها إلى هذه الغاية.

فأما المعنى الذى تشترك فى تقريره وإبرازه فهو غرس خلق التضحية فى قلوب المؤمنين، وحثهم فى قوة وصرامة عا[illegible] بذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله.

مكتبتنا العربية

وأما الوسيلة التى اتخذتها لذلك فهى بيان أن كل شيء فى هـذا الوجود إنمـا هو لله تعـالى ملكا وتصريفا وتدبيرا ، فليس يسوغ للمملوكين أن يتمردوا على أمر مالكهم ومدبر شئونهم والمتصرف فيهم ، ولا أن يبخلوا بشيء مما أفاضه عليهم سواء أكان هذا الشيء نفسا أم مالا أم متاعا .

على أن الأسلوب فى بيان هذه الوسيلة قد اختلف ، فكان لكل سورة طابعها الخاص ، وروحها المتميز .

ونرجو أن نتمكن من إبراز ذلك عند ما نعرض للكلام عليـه بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

* * *

١ ـ سورة الحديد :

بدأت أول سورة من سور التسبيح المدنيات ، وهى سورة الحديد بقوله تعالى « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ثم أوردت بعد ذلك أوصافا لله جل جلاله ترجع إلى ذاته وأفعاله وتصريفه ، فبينت أن ملك السموات والأرض إنمـا هو الله ، وأنه تعالى يحيي ويميت وهو على كل شيء قـدير ، وأنه هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . ثم ذكرت خلقـه السموات والأرض فى ستة أيام واستواءه تعالى على العرش وإحاطة علمه بكل شيء ، ورجوع كل شيء إليه ، فتم لهـا بذلك التمهيدَ للمقصد ، وإعداد النفوس للمطلوب ، ومن ذا الذى يسمع هذا الوصف الذى يصف به الإله المـالك الخالق القادر المتصرف نفسه ثم لا يكون متهيئاً بروحه وقلبه لتلقى أمر مولاه ومالك ناصيته ؟

هكذا تخلصت السورة إلى القلوب بهذا الوصف القوى الرهيب ، وهذا الحديث الجامع عن عظمة الله ، ثم جاءت بعد ذلك بالأمر المراد فقالت « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » فجمعت بين طلب الإيمـان بالله ورسوله ـ الذى هو الفريضة الأولى على الإنسان ـ وطلب الإنفاق ، وعبرت عن المـال الذى أمرت بالبذل منه بعبارة تتفق وما مهدت به من أن كل ما فى الوجود مملوك لله تعالى حيث قالت « مما جعلكم مستخلفين فيه » لتفيدهم أن مركزهم بالنسبة

مكتبتنا العربية

للمال هو مركز الخليفة عن الله ، كما أنهم خلفاء عنه فى الأرض ذاتها « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

ويفهم من التعبير بلفظ « الاستخلاف » أن الإنسان قد خُوّل المال ، وفوض له أن يتصرف فيه تصرف المالك الذى يفعل فى ملكه ما يشاء ، ولكن فى دائرة ما استخلف فيه ، وهو قد استخلف على أن يكون ما جعله الله فى يده قسما له وقسما فى سبيل الله وفى سد حاجة المحتاجين ، فليس له أن يحتجز ما لغيره فيبخل به عن مواضعه ، وإلا كان خارجا على دستور خلافته ، منحرفا عن شروط توليته وتخويله .

وفى التعبير بلفظ « الاستخلاف » أيضاً إشارة إلى معنى آخر ، وهو أن المال قد وصل إلى الحاضرين بعد أن كان فى أيدى السابقين ، وأنه سيصل إلى الآيتين بعد أن يخرج من أيدى الحاضرين ، فإن الخلافة معناها أن يتتابع على الأمر خلفٌ بعد خلف ، فإذا نظرنا إلى المال هذه النظرة علمنا أنه غير باق لنا كما لم يبق لمن قبلنا ، وحرصنا على أن نستوفى منه حظنا قبل أن يصير لغيرنا .

ثم ذكرت السورة بعد هذا الأمر الجازم بالإيمان والإنفاق أن جزاء الذين استجابوا لربهم فآمنوا وأنفقوا جزاء كريم ، وأجرهم أجر كبير ، ثم ناقشت معنى التباطؤ عن الإيمان ، والتباطؤ عن الإنفاق مناقشة منطقية ، فاستنكرت الأول بقولها : « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسولُ يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ، هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم » .

فهى تقول لهم : إن الرسول قائم بينكم يدعوكم دائباً إلى الإيمان بالله ، وقد أخذت عليكم المواثيق من قبل : لتؤمنن بالله ربكم ، مواثيق الفطرة والعقل والدلائل يوم « ألست بربكم » ، ووضح لكم أن الله هو الذى أرسل هذا الرسول وأنزل عليه الآيات البينات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والمعرفة رأفة بكم ، ورحمة لكم ، فما الذى يحول بينكم وبين الإيمان ؟

واستنكرت الثانى بقولها : « وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض » أى أن كل شىء فى هذه الدنيا صائر إلى الله ، ولا مناص من خروج

مكتبتنا العربية

الإنسان عما يملك ، إما بالموت وإما بالإنفاق ، فإذا خرج عنه بالموت مع حرصه على اكتنازه وبخله به وعصيان الله فيه ، فقد خرج عنه بطريقة مذمومة يلحقه فيها العيب ، ويدركه اللوم والعقاب ، وإذا خرج عنه بطريق البذل والإنفاق والنزول على أمر الله فيه ، ومعرفة حقه ، كان فى هذا الخروج كريماً نبيلا ، ولاشك أن العاقل يختار الثانية على الأولى .

وهكذا عالجت السورة أمر التباطؤ عن الإيمان والإنفاق بإثبات الدواعى ونفى الموانع كما يقول أهل البحث والمناظرة .

ثم وازنت السورة بين فريقين من الباذلين المضحين ، فريق الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا وقاتلوا قبل الفتح ، وقبل أن تبدو مظاهر النصر للدين ، وفريق الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح حين ظهر الإسلام ، وقويت شوكته ، وقد أثبت الله الحسنى لكل من الفريقين ولكنه جعل للأولين درجة على الآخرين .

وفى هذا عدل وإنصاف حيث لم يحرم أحداً جزاء فعله ، ولم يسوّ بين من كان إحسانه مستوفياً عناصر الثقة بالله دون تلبث ولا تردد ، ومن كان إحسانه بعد لأى وإن كان من الصادقين .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثم جاءت السورة الكريمة بعد هذا بصورة رائعة من صور الحث على فعل الخير : صورة مقترض يناشد من يقرضه قرضاً حسناً ، ويعده على هذا القرض وعداً صادقاً أن يضاعفه له ، وأن يزيده فوق هذه المضاعفة أجراً كريماً فى يوم يكون للمؤمنين فيه شأن ، وللمنافقين شأن ، والمقترض الداعى فى هذه الصورة هو الله جل جلاله ، والمدعوون إلى هذا القرض هم المؤمنون والمؤمنات الذين وثقوا بربهم ، ولم يفتنوا ولم يتربصوا ولم يرتابوا ولم تغرهم الأمانى « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم

مكتبتنا العربية

فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يقبل منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير » .

ثم تمضى السورة بعد هذه الدعوة القوية إلى البذل والإنفاق ، فتلمس منهم القلوب وعواطف الإيمان والرحمة ، وتحذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، كما تحذرهم أن يقنطوا وييأسوا من أنفسهم فإن الله يحيي الأرض بعد موتها ، وتعود مسرعة مرة أخرى إلى حديث الإنفاق والصدقات فتقول : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » وتمضى فى هذا الحديث مبينة شأن المؤمنين بالله ورسوله ، وأجرهم عند ربهم ، وشأن الكافرين المكذبين وجزاءهم فى نار الجحيم ، وتضرب مثلا للحياة الدنيا فى لعبها ولهوها وزينتها وتكاثر الناس فيها وتفاخرهم بالأموال والأولاد « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

ثم تدعو المؤمنين إلى مسابقة جائزتها المغفرة من ربهم والجنة العريضة التى أعدها الله لمن آمن به ورسله ، « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ثم تنفى عن المؤمنين عاملا من عوامل الضعف النفسى حين يشغلون أنفسهم بالندم على ما فاتهم ، والفرح بما أوتوا ، وتعلمهم أن كل شيء يصيبهم إنما هو فى كتاب قد قدره الله وسبق به علمه فلا مناص منه ، ولا مفر من حصوله ، وإذن فليس الحرص على المال بنافع إذا أراد الله بالمرء فقرا ، وليس البذل بمانع من الغنى إذا أراد الله بالعبد غنى ، وإن الله ليكره هؤلاء المختالين الفخورين ، الذين يظنون أنهم قد اطلعوا بحصافتهم أو علمهم أو فراستهم على الغيب ، فيبخلون خوفا من الفقر : ويأمرون الناس بالبخل تخويفاً لهم منه ، ويتولون عن دعوة الله كأن لم يسمعوها ، والله هو الغنى الحميد .

مكتبتنا العربية

ثم تتحدث عن شأن الله فى إرسال الرسل بالبينات ، وإنزاله الكتب للهداية والتعليم ، وربطه الكون على سنن ثابته وموازين متناسبة ليقوم الناس بالقسط ، وإنزاله الحديد ليكون زجرا لمن لا تنفع فيه الموعظة ، ولا تجدى معه أساليب الدعوة ، وتذكر رسالة نوح وإبراهيم ومن جاء بعدهما من ذريتهما ، وتذكر عيسى ابن مريم ومتبعيه ، ثم تتجه فى ختامها إلى المؤمنين بهذا النداء النوى فتقول :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

والكفلان اللذان وعدت بهما هذه الآية من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم هما الجزاءان اللذان ادخرهما الله للذين جمعوا بين الإيمان بالرسل السابقين والإيمان بخاتمهم عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء ذلك أيضاً فى قوله تعالى من سورة القصص « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » .

* * *

من هذا العرض السريع لسورة الحديد يتبين ما قلناه من أن المقصود الأول أو الأوحد لها ، هو غرس خلق البذل والتضحية فى نفوس المؤمنين ، وحثهم على محاربة الشح والضن بالمال ، وأنها التمست لهذا الغرض وسيلة معينة هى إفهام الناس أن الله جل جلاله هو مالك الملك ، وهو صاحب الخلق ، وكل شيء فى هذه الحياة فهو منه وإليه ، وكل ما وقع أو سيقع فبإذنه وعلمه ، فليس لأحد أن ينكص عن أمره ، أو يتباطأ فى تلبية دعوته .

وسنعرض فى مقالاتنا المقبلة — إن شاء الله — لما جاءت به سور التسبيح الأخرى ، ثم نعود إلى التفسير التفصيلى لهذه السور الكريمة ، والله المستعان .

مكتبتنا العربية

التفسير

بقية التفسير الوارد فى العدد الماضى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما * »

سورة النساء

« واستغفر الله » الغفر : الستر والتغطية وغفر : غطى وستر . واستغفره لذنبه ومن ذنبه واستغفره إياه طلب منه غفره وستره بمعنى عدم ترتب العقوبة عليه .

ولم يذكر المستغفر منه هنا وتركه عاما كما تركه فى قوله . فسبح بحمد ربك واستغفره » وذكره فى آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين . . » . وهذا الأمر من الله لنبيه يستدعى البحث عن الذى يستغفر منه الرسول هنا وفى الآيات الأخرى ...

أما هنا فمفهوم من المقام ، إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم مال بطبعه وحسب الأدلة التى تجمعت لديه إلى مناصرة المسلمين السارقين دون علم بحالهم طبعا وهم أن يقضى على اليهودى البرىء ، لولا أن الله نبهه إلى الحق الذى خفى عليه . فيكون الاستغفار بسبب هذا الهم وهذا الميل المعذور فيه . وهذا وإن كان لاشىء فيه بالنسبة لعامة الناس إلا أن مقام الرسول وعلو مرتبته وشدة قربه من الله ومراقبته يجعل ذلك مما يدعو إلى المبادرة بالتطهر منه . ولكل إنسان مقام وتصرف يتناسب مع مقامه فما يعد مقبولا من الجاهل أو الخادم قد يلام بسببه العالم أو السيد « وحسنات الأبرار سيئات المقربين » كما قال الجنيد . وهذا هو الذى يمكن فهمه سبباً للاستغفار هنا يعيننا عليه سبب نزول هذه الآيات ، وأيضا هذه النواهى التى يشتم منها اتجاه الرسول إلى ما نهى عنه . فمجموع هذا يجعلنا نفهم أن المستغفر منه هنا إنما هو الميل والهم بالحكم فقط إذ لم يتعد الأمر غير هذا ولم تقع من الرسول فى هذا المقام مخالفة عملية ،

مكتبتنا العربية

وكذلك يمكن أن نفهم قوله : « فسبح بحمد ربك واستغفره » ، فسبب الاستغفار هنا كما يفهم من كلام الإمام الشيخ محمد عبده راجع إلى ما كان يساور الرسول من القلق والحزن لتأخر النصر والفتح . وهذه هواجس للنفس لا سبيل إلى التغلب عليها لا سيما فى الشدائد ، فأمر الرسول بالاستغفار مما لا قدرة له على دفعه تطهيراً لمقام النبوة لأن ذلك هو المناسب لها .

أما آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » فقد صرح فيها بالمستغفر منه وهو الذنب . وهذا يستدعى منا أن نبحث هل وقع من الرسول ذنوب حتى يؤمر بالاستغفار منها وحتى يقول الله فى آية الفتح له : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

هذه النقطة كانت مثار جدل قديم بين العلماء تفرعت عنه تأويلات شتى لهاتين الآيتين وما ماثلهما فى القرآن مثل : « فعصى آدم ربه فغوى » وقوله على لسان سيدنا إبراهيم » ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » وقوله تعالى عن سيدنا داود « فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . . فغفرنا له ذلك » . .

ولا أحب أن أثقل عليك كثيرا برد هذه الخلافات ، ولهذا سأذكر هنا الرأى الذى أميل إليه مطمئنا إلى دلائله وإلى من قال به من الأئمة الأعلام .

لا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يقصدون فى أعمالهم إلى مخالفة الله فى سرهم أو جهرهم ، وهم لا يسيرون فى كل أمورهم بوحى بل يتركون فى كثير منها لفهمهم واجتهادهم فى الوصول إلى الخير وتطبيق ما عرفوه عن الله على الحوادث الجارية أمامهم متوخين رضا الله سبحانه ، ولكنهم قد لا يوافقون فى اجتهادهم وفهمهم مراد الله ، وهنا تحوطهم العناية الإلهية ويردهم الله إلى ما يريد من الصواب . وهذا هو الفرق بين الرسل وبين المجتهدين من العلماء .

قد يكون الرد إلى الصواب بعد تنفيذ الرأى وربما يصحبه عتاب كلامى كما حصل مع نبينا فى قصة الأسارى [١] والمستأذنين [٢] وفى قصة زينب [٣] وابن

---

(١) « ما كان لنبى أن يكون له أسرى . » الآيات ٦٧ وما بعدها سورة الأنفال .

(٢) « عفا الله عنك لم أذنت لهم . . » آية ٤٣ من التوبة .

(٣) وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه . » آية ٣٧ من الأحزاب .

مكتبتنا العربية

أم مكتوم [1] وقد يكون قبل التنفيذ كما معنا فى هذه الآية إذ أن الرسول لم يحكم بالفعل بل هم ومال فنبهه الله بالوحى إلى خلاف همه وميله وأمره بالاستغفار من أجله .

هذا الذى يحصل من الرسل من عدم موافقة فهمهم واجتهادهم لمراد الله مع إخلاصهم بالطبع فى قصدهم للخير هو ما يمكن أن يقال عنه إنه ذنوب كما عبر القرآن . وهى قطعا ليست ذنوباً من جنس ذنوبنا بل إنها تشبه خطأنا ـ الذى نثاب عليه ـ فى الاجتهاد . على أن بعض العلماء يسميها أخطاء وبعضهم يسميها خلاف الأولى .

والذى يسميها ذنوباً أو أخطاء يجد سنده فى تسمية القرآن لها بهذه التسمية . والذى يطلق عليها خلاف الأولى يقول إن الله الذى أرسل الرسل هو الذى له أن يصف بعض أعمالهم بأنها خطأ وأنها ذنب . أما نحن الأتباع ـ وكلنا أقل مرتبة من الرسل ـ فلا يليق بنا أن نقول عن هذه الأعمال إلا أنها خلاف الأولى تأدبا مع مقامهم عليهم الصلاة والسلام .

والرسل فى هذه الحالات التى خالفوا فيها مراد الله معذورون . . ولكنهم ليسوا كالناس بل هم من المصطفين الأخيار لا يتناسب مع مقامهم إلا أن يتطهروا بالندم على عدم التوفيق فى فهم مراد الله ـ وان كانوا معذورين ـ ولذلك وجههم ربهم ـ الذى أدبهم ورباهم إلى التطهر وطلب العفو والمغفرة فكانت أوامر الاستغفار الصادرة من الله إلى الرسل والتى معنا منها هذه الآية وكانت رغبة الرسل فى التطهر شديدة كذلك ، وكان إحساسهم بسمو مقامهم وشدة قربهم من الله يدفعهم إلى الاكثار من الاستغفار والدعاء والعبادة . . يدعون الله لهم أولا لأنهم فى حاجة إلى عفوه ورضاه ، ويدعون لأمتهم ، ويعلمونها كيف تستغفر وتدعو . .

وإذا وافقتنى على هذا الرأى الذى اخترته كنت معى فى أن هؤلاء الذين قالوا فى « واستغفر الله » أى لبعض أمتك الذين تواطئوا مع السارق وشهدوا معه ،

---

(١) « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . . الآيات » من سورة عبس .

مكتبتنا العربية

وقالوا فى « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » المراد ذنب أمته . كما قالوا فى « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » أى من ذنب أمتك . كنت معى فى أن هذا التأويل غلو لا معنى له ولا داعى اليه لا سيما وفهم الرسول والصحابة لآية « ليغفر لك الله . . . » وما دار بينهم وبين الرسول حولها حين نزلت كان على أساس أن المغفرة للرسول لا لهم ؛ فقد قالوا له حينما نزلت وقد عبد الله حتى تورمت قدماه : « لم هذا وقد غفر لك ؟ . فقال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» وقالوا له هنيئاً مريئاً يانبى الله . . بين الله ما يفعل بك ، فما يفعل بنا ؟ ـ وكان ذلك عقب نزول « ليغفر لك الله . . . » فنزلت « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار الآية » .

« إن الله كان غفوراً رحيما » كان تقتضى ثبوت الخبر للمخبر عنه فى زمن مضى وانقطع . وهذا المعنى لا يستقيم فى هذه الآية ولا فيما يشبهها ؛ إذ أن الله قديم وباق بذاته وصفاته فلا بد أن نحملها على الدوام فى هذا التركيب وأمثاله ومعناه لم يزل ولا يزال موصوفا بذلك الوصف .

وغفور ورحيم جاءا على صيغتى المبالغة فعول وفعيل ومعناهما كثير الستر والتغطية للذنوب المستغفر منها ، بمعنى أنه كثير التجاوز عن العقاب عليها كما أنه كثير الرحمة لعباده والإنعام عليهم بنعمه التى لا تحصى ، والرحمة فيه من مقتضى ألوهيته وربوبيته .

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » هذا نهى للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل فرد من أمته عن الدفاع عن الخونة الآثمين . والجدل : اللدد فى الخصومة والقدرة عليها « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » والمجادلة المخاصمة . من جادله وجدله فانجدل صرعه على الجدالة ، وهى الأرض كأن كلا من الخصمين يريد أن يفوز على خصمه ويلقيه على الأرض . والمعنى لا تنتصر لقوم خائنين ، وتدافع عنهم حتى تجعلهم يفوزون بباطلهم وينتصرون على غيرهم من الأبرياء .

« ويختانون أنفسهم » يخونونها إذ الاختيان والخيانة بمعنى . يقال خانه واختانه وإن كانت الأخيرة فيها معنى التكلف والتعمل كأنه يحمل نفسه ويقسرها قسراً

مكتبتنا العربية

على الخروج عن الفطرة بالخيانة . والمراد بهم : السارق وقومه الذين آزروه ونصروه بالباطل .

وخيانتهم أنفسهم : جاءت من أن ضرر خيانة الغير يعود على النفس ، ولا شك أن إضرار النفس خيانة لها ، إذ أنه بالمعصية عرضها للعقاب وحرمها من الثواب . وقد اختار الله سبحانه هذا التركيب هنا وفى آيات كثيرة مثل قوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »[١] « ولا تلمزوا أنفسكم »[٢] « لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم »[٣] . إشعاراً للنفوس بأن الاعتداء على الغير فى أية صورة كانت اعتداء على النفس ، وتربية لها على الإحساس الجماعى حتى يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لنفسه ، وحتى يفهم معنى الترابط والتآخى العام ، ويحس بفداحة ما يقدم عليه من الاعتداء على الغير حتى ينفر منه .

« إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما » ورد فى القرآن ، « إن الله لا يحب المعتدين »[٤] « لا يحب الله الجهر بالسوء »[٥] « والله لا يحب كل مختال فخور »[٦] وعدم المحبة فى هذه الآيات كناية عن السخط والغضب من الله . إذ المحبة التى هى انفعال نفسانى يترتب عليه آثاره مستحيلة على الله ، وكذلك عدم المحبة ، ثم إن نفى المحبة فى حد ذاته لا يستدعى الغضب والكراهة والسخط ، لأنه يوجد معنى وسط بين المحبة وعدم المحبة ، فيقال أنا لا أحبه ولا أكرهه ، ولكن هذا لا يكون بجانب الله ، فهو سبحانه إما راض أو ساخط ، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ، على أن محبة الله لما كانت منفية عن الخوان الأثيم ، والمختال الفخور ، والجاهر بالسوء والمعتدى ، كان لا بد من تأويل ذلك بالسخط والغضب ، فمعنى لا يحب أى يسخط ويعاقب .

و « من كان خواناً اثيما » جاءا على صيغتى المبالغة فعال وفعيل وانضم إلى ذلك ما تشعره كان فى مثل هذا التركيب من معنى المداومة ، ومعنى ذلك كثير الإثم كثير الخيانة ، مداوم عليهما حتى صارا ديدنه . ولكن هل معنى هذا أن غضب الله وسخطه لا يكون إلا على المتأصلين فى الخيانة والإثم : لا . إن الله لا يرضى أبداً

---

(١) ٢٩ سورة النساء (٢) ١١ الحجرات (٣) ٨٤ البقرة (٤) ١٩٠ البقرة .
(٥) ١٤٨ سورة النساء (٦) ٢٣ الحديد .

عن الخائن الآثم ، ولا عن الخوان الأثيم ، فكلاهما مستحق للعقاب وإن تفاوتا . وإنما جاء هذا التركيب معبراً عن الواقع من أمر السارق وقومه ؛ فقد كان موغلا فى الخيانة والإجرام ، وكانت نفسه بطبيعتها لا تنفك عن ارتكاب الجرائم ، حتى إنه لما فضحه الله بهذه الآيات كفر وهرب إلى مكة ، واستمر فى جرمه حتى مات . هذا فوق أنه سارق ومتهم غيره ومحاول إضلال الرسول وانتزاع حكم منه لصالحه بغير الحق ، وقد اشترك قومه معه وعاونوه وآزروه ، فاستحقوا جميعاً هذا الوصف : الخوان الأثيم .

وهذا الواقع الذى سجلته الآية فى صيغتى المبالغة هو الذى روعى أيضاً فى الجمع بين الخوان والأثيم . فقد خان حين سرق ، وأثم فى اتهام البرىء . ويمكن أن يقال إن الخيانة حالة نفسية خبيثة ، تترتب عليها آثام عملية ، فجمع الله بين الطبيعة الشريرة ، والآثم الصادر عنها مما وافق حالة السارق وقومه . بخلاف ما يصدر من الإثم بحسن نية .

* * *

وبعد . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض أمامه حادثة من الحوادث وتتكون الأدلة لديه لاتخاذ رأى معين فيها ، ولكن لم يحكم به لأن الله حرسه من ألاعيب المنافقين ودسائسهم ، ونبهه إلى ما يجدر عمله حتى يوضع الحق فى نصابه ، ولم يكن فى هذا الميل الذى أداه إليه اجتهاده من شىء عليه ، فإنما يحكم بالظاهر ، ولكن الله سبحانه لم يرض لرسوله حتى هذا الميل وهذا الهم بالحكم ، ووجد أن ذلك شىء لا يتفق مع صفاء النبوة ولا سمو الرسالة ، فوجهه إلى استرضائه وطلب المغفرة منه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كثير الاستغفار والدعاء وهو الذى يقول عليه السلام « ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة [١] » ، ويقول ابن عمر رضى الله عنهما : إنا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم » مائة مرة ، ولا غرابة فى هذا ورسول الله أقرب المقربين إلى الله ، فاننا نعرف أن حرص

---

[١] أخرجه النسائى وابن ماجه عن أبى موسى .

مكتبتنا العربية

المحب على رضاء حبيبه يجعله دائما يحاسب نفسه على هواجسها ويؤاخذها ويجتهد فى بذل كل ما يقربه أو يزيده قربا . والذين يعاشرون الملوك يخشون هفوات نفوسهم ، وتعد عليهم أنفاسهم ونظراتهم ويبادرون دائما بتصحيح كل ما يمكن أن يؤخذ عليهم وإزالته حتى لا يطردوا من ساحة مليكهم ، أو يوصفوا بعدم الارتياح إليهم ، ويجتهدون أن يكونوا عند مليكهم تماثيل من الاخلاص تشع وفاء وولاء ، فما بالك بهؤلاء المصطفين الأخيار ، الذين اختارهم ملك الملوك واجتباهم وهذبهم وهداهم ، أفلا يكونون أحرص خلق الله على رضاه ، وأشدهم إحساسا وتقديرا لفضله ، وأسرعهم إلى إزالة كل ما يشتم منه رائحة مخالفة ولوصورية لربهم ! ثم ألسنا نحن أتباع الرسل نلوم أنفسنا كثيراً على هواجسها السيئة أو نستغفر الله ونندم من سيطرتها علينا فترة من الوقت ؟!.

فهل يمكن لإنسان بعد هذا أن يقول : إن هؤلاء المقربين أصبحوا فى غنى عن فضل الله وعفوه ورضاه ، أو أن مقامهم يجل عن ذلك حتى يجعل كل استغفار لهم استغفارا لأمتهم لا لهم ، بحجة أنهم ليسوا فى حاجة إلى استغفار ؟! لقد استغفروا لأنفسهم لأنهم فى حاجة إلى العفو والمغفرة ، واستغفروا لأمتهم لأنها فى حاجة إلى دعائهم واستغفارهم وشفاعتهم عند ربهم ، وعلموا الناس بذلك كيف يستغفرون ويتطهرون وهم أشد حاجة إلى الاستغفار والتطهر ، و « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »

ما أجدرنا أن نتأمل قليلا فى توجيه الله لرسوله أن يسترضيه ويستغفره !! إنه العطف الكامل والرعاية الشاملة التى تؤذن بقبول الاستغفار وشمول العفو والمغفرة . ثم ما أجدرنا بعد هذا أن نتأمل موقفنا من احتضان الباطل والمبطلين ومناصرة الظلم والظالمين بالقياس إلى موقف الرسول الذى كان يقصد الحق حين اجتهد فأمره الله أن يستغفر مما وقع فيه من الهم والميل . كم نحن فى حاجة إذن إلى الاستغفار ؟ !!

إن فى هذا لفتاً شديدا لأنظارنا حتى نحفظ للحق كرامته ونصون أنفسنا من الخوض فى الباطل أو مناصرة الظالم ، كما أن فيه تحريضاً قويا على السعى إلى التطهر مما يتدنس به الإنسان من عمل لا يتفق والحق . والاستغفار ليس

مكتبتنا العربية

إلا توبة خالصة ، فيها ندم ورجوع إلى الحق وعزم على الإخلاص . والله سبحانه كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئآت ، ومن كمال ربوبيته رحمته التى وسعت كل شيء « لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون ثم يغفر لهم وهو الغفور الرحيم » (١) . « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم » (٢) . فلا محل إذن لليأس من رحمة الله « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (٣) . فمن الواجب أن يبادر المؤمن بالتطهر وهو موقن أن الذى يرجوه يحب رجاءه ويفرح بتوسله « أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل يمشى أقبلت إليه أهرول » (٤) .

وبعد أن أمر الله رسوله بالتطهر عاد إلى مخاطبته حيث ينهاه للمرة الثانية عن الوقوف فى صف الباطل والمبطلين ، فقد سبق قبل هذا بآية أن قال له : « ولا تكن للخائنين خصيما » فعوده هذا يحق لنا أن نقف عنده طويلا فإن خطاب الرسول هنا خطاب لأمته معه ، ولنحن أشد حاجة إلى أن يقرع سمعنا هذا النهى مرة بعد أخرى حتى يستقيم أمرنا ، ويقر قرار الحق بيننا ، وحتى لا يجد المفسدون فى الأرض من يحميهم من سطوة القانون وإن ختام الآية ليحمل إنذاراً شديداً للخائنين الذين يعيثون فى الأرض الفساد ، وهل هناك ما هو أشد على الإنسان من الطرد من رحمة الله حيث ينزل عليه غضبه ، وتحل عليه نقمته ؟!

إن صاحب الأمر ومالك الملك يتوعد الخائنين وينذرهم غضبه فى يوم يجعل الولدان شيباً ، وبأس ربك شديد وعذابه أليم مهين ، وإن كان غفوراً رحيما « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول » .

ولقد جمعت الآيتان بين الترغيب والترهيب ، أطمعت الأولى عباد الله المقصرين فى عفوه ورحمته ليبادر إلى ساحتها كل تواب أواب ، أما السادرون فى آثامهم وضلالهم فقد كشفت الثانية عن مصيرهم ومآلهم : غضب وطرد من رحمة الله « ومن يهن الله فما له من مكرم : إن الله يفعل ما يشاء » .

يتبع

---

[١] رواه الحاكم [٢] رواه مسلم [٣] الآية من سورة يوسف [٤] رواه مسلم